فرح الفراشة

بيد جرزيم وعيبال

فرح الفراشة

بين جرزيم وعيبال

محمد حسين السماعنة

الطبعة الأولى
2019م

دار امجد للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2019/1/32)

813.03

السماعنة ، محمد حسين

فرح الفراشة بين جرزيم وعيبال/ محمد حسين السماعنة، عمان، دار أمجد للنشر والتوزيع،2019.

( ) ص

ر.إ: 2019/1/32

الواصفات:/ الأدب العربي// الروايات العربية// العصر الحديث

ردمك : ISBN:978-9957-99-936-0

Copyright ©

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights reserved. NO Part of this book may be reproduced, stored in aretrival system, or transmitted in any form or by any means, without prior permission in writing of the publisher.

دار أمجد للنشر والتوزيع
طباعة ◆ نشر ◆ توزيع
daramjadbooks amjadbooksdp daramjadbooks
dar.amjad2014dp@yahoo.com daramjadbooks@gmail.com
للتواصل و الإستفسار: Fax:+9624653372 Tel:+9624652272 +962796914632 +962799291702 +962796803670

إبصار
ابصار ناشرون و موزعون
المحترفون الاردنيون لصناعة وابل
ibsarbraillejo ibsarbraillejordan@gmail.com

إهداء

إلى فراشة الفرح، قاطفة الشمس، حاملة العبء، بازرة الحب، ساقية النجوم، غارسة المجد، أغنية العلا والفخار

فراشة الفرح

قلت له: لن تستطيع أن تمنع أذنيك من سماع وشوشات عائلة أبي شديد حتى لو كنت جالساً على الصخرة الكبيرة التي تحتضن المضافة في ظاهر القرية، فعائلة أبي شديد وشوشاتها صراخ، وصراخها قرع طبول..

- قالت لي: لا يا اختي! امشي فى جنازة، ولا تمشي فى جوازه!

- بس محمد شب محترم وكثير كويس!؟

وهي تضرب العجين ضرب غاضب حائر، وتمسح جبهتها بطرف كمها:قلت لها، وردَّت عليّ بوجه لاسع، وصمصمت شفافيفها ولوتهن،وأذن من طين وأذن من عجين!

تنهد أبو شديد: طيب يا أم شديد، انت فتشي وشوفي بركي بنلقى لهلولد البنت اللي بيقبلها؟مش لو أخذ بنت عمو كان ارتاح وريحنا" خد ابن عمك واتغطى بكمك، مهو نار القريب ولا جنة الغريب؟!

أم شديد بغضب، عبرت عنه بهزة رأس والتفاتة حادة: وبيكول المثل: خذ من الزرايب ولا توخذ من الكرايب، وإن كان لك كريب لا تشاركه ولا تناسبه؟

- بس عقد لحافك مد رجليك، وانت بتعرفي البير وبتعرفي غطاه!؟

وقد أعجبني حوارهما، ومنطق أبي شديد وأسلوبه،فملت لرأيه وأدليت بدلوي: والله معك حق يا أبو شديد،أيوه اتغدى بيها قبل ما تتعشى فيك، وركض وركضت، وقفز وقفزت وشتم وفررت...

ولأن مشاغل كثيرة منعتني من الحضور باكرا للجلوس على الصخرة، لم أسمع كثيرا من وشوشات عائلة أبي شديد

- يمّا، البنت ما على عيلتها أي كلام، بس قبل ما تخطب وتناسب شاور واسأل وفكر وحاسب، وإن شا الله اليوم بنحكي لستَّك، وبنمر على أختك، وبنوخذ عمتك، وإذا بترضى خالتك، وبنروح نشوفها..

لم يعرف محمد من هي الفتاة التي حظيت بإعجاب عائلة أبي شديد، فقد كان استعراض بنات القرية لانتقاء ما يناسب ابنهم عملهم اليومي وحوارهم الصاخب، وكان الاستماع إلى وشوشاتهم الصاخبة يمتع محمدا ويغريه بالتردد على هذه الصخرة العظيمة، ولما سمع توافق أصواتهم قرر ملاحقة خطواتهم..

- جبتن معكن حبة اللوز؟سألت الجدة
- بصرامة وحرص:آه هيوتها معي؟
- اسمعن، أقول إلكن، ولا وحده تتدخل، أنا بس اللي بنقد، انتن شوفن واسمعن وبس، فاهمات!
- هزت النسوة رؤوسهن بالموافقة المقهورة

ولما اقترب السرب من بيت أبي سالم نادت أم شديد بصوت مليء بالزهو والفرح: هِي يا ام سالم!

ولم تكد تنهي النداء الفرحَ الراقص حتى أطلت عليهن أم سالم، ورحبت بهن وهلّت: وتناولتهن بقبلات متسلسلة متتابعة جهورية باذخة" فوتن يا حبيباتي فوتن، أهلا وسهلا"

وعلى استحياء دخلت فتاة سمراء طويلة مشطت شعرها، ولبست جديدها، وتزينت وتعطرت تحمل بين يديها صينية القهوة، فارتفعت إليها العيون تراقب حركتها، وتتفحص مشيتها، وتستمع لنبضات قلبها، قالت لها الجدة: ما شا الله، ما شا الله! تعالي يا حبيبتي، تعالي أبوسك، وشدتها من عرقوبها، ولما مالت عليها الفتاة السمراء الصغيرة المتأنقة المتعطرة المتزينة الحيية شدِّتها من شعرها، فتأوهت الفتاة، وكادت بمكنون الشتيمة تجهر، لولا أن أمها غمزتها، وبيدها صبَّرتها.

- ميّة مرحبا فيك، اسم الله عليك! خذي يا حبيبتي، جبتلك من لوزتنا حبة هل اللوز اللي بتهوس، وحكيت والله ما يوكلها حدا غيرك، خذي لا تستحيش، يالله اطقشيها باسنانك اللولو، لكن الفتاة السمراء أبقت حبة اللوز في يدها، وقالت شكرا يا ستو الله يبارك فيك!

وألحت الجدة على الفتاة السمراء الطويلة ذات الشعر الأسود الخيلي أن تكسر حبة اللوز بأسنانها...

كان شديد واقفا على تازير العلية يراقب الرائح والغادي لعل سربه يطل ومعه الأخبار التي تسر وتشرح الصدر.

- ألف ألف مبروك يا حبيبي خطبت لك ست الحسن، ست بيت ما باس ثمها غير أمها، غزال، ودلال وجمال، وبنت حلال، عيونها مثل فلاليق الجوز، وخدودها تفاح الشام، وشفايفها مبسم بستان، وسنونها برد نيسان، وبسمتها نسمة، وضحكتها نغمة، وقدها مطرق رمان، وطلتها غمر ريحان، جمال وأدب ودين وحسب ونسب، وردة من الجنة الله وكيلك...

- لا، وكمان معها الابتدائية، ومدللة مثل بنتنا بهية!

- بلا ابتدائية بلا بطيخ، المرة لو طلعت للمريخ آخرتها للطبيخ!

وقف المختار فوضع الفنجان على الحصيرة، ثم سلم وحمد الله وصلى على رسوله، ثم مدح وأثنى وطلب، وشرب قهوته، وارتفعت الأكف إلى السماء والكل يهمس قارئا سورة الفاتحة...

– لا تنسي يا مليحة شو بيقول المثل "اللي بتخرج من دارها بقل مقدارها، وابنك على ما تربيه وجوزك على ما تعوديه، والرجال

عند غراضها نسوان، والرطل بدو رطل ووقية، واللي يقول لها جوزها يا عورة يلعبوا بيها الكورة..

في حفلة الحنة كنت ذلك الطفل الصغير الذي منعته نساء القرية من الدخول، قلن لأمي هذا كبير، ولا يجوز أن يدخل، ولكنني رأيت كل شيء من طرف النافذة التي لم يفلح الحراس بتغطيتها، كانت العروس جالسة مع أخواتها وأمها في زاوية من الغرفة ترتدي غلالة فضفاضة عندما دخلت رفيقاتها وأخذنها إلى غرفة أخرى وتبعتهنّ النساء وهن يغنينّ لها "قومي تمخطري يا زينة".

وبدأت إحداهن الرسم بالحناء على يديها، ثم على رجليها، ثم تناولت بعض خصلات شعرها في ليلة مليئة بالحناء الذي كانت رائحته تهز روحي وما زالت.

وكانت واحدة طويلة منهن قد وضعت الحناء في وعاء وجبلته برفق ورقة وحنان وابتسامات وغناء جماعي لذيذ، وبعد أن أضافت قليلا من الشاي والخميرة راحت تداعب العجين بغنائها، وهي تضيف إليه كلما جفّ ماء «شاي» حتى بدا لي الحناء لزجا سهل التمدد على الأيدي والشعر والقدمين

وأما صديقات العروس فبعد أن نزعن عنها غلالتها وألبسنها ثوب العرس الأبيض على صوت زغاريدهنّ المبهجة رششنها بالعطور،

وطلينّ وجهها بالمساحيق التجميلية، ووضعن على شعرها إكليلا تاجيّا من زهر الليمون.

وفي الزوايا كانت بعض الهمسات واللمزات والهمزات والإشارات الخارجة على النص:

- ام بربور صادت الشاب الغندور
- إيش تعمل الماشطة فى الوش العكر
- العز للرز والبرغل شنق حالو

ويستمر الغناء متماوجا يعلو حينا وينخفض حينا، ويسرع حينا ويبطئ حينا:

وانت يا عريس يا غالي عليّي
يا ساكن روحي يا رافغع عينيّ
يا حنّا يا اخضر يا لايق عَ شعري
وانت يا عريس يا رافع لي ظهري
يا حنّا يا اخضر يا لايق عَ كفوفي
وانت يا عريس يا غالي عَ ضيوفي
يا حنا يا اخضر يا لايق عَ راسي
وانت يا عريس غالي على الناسِ
يا حنّا يا اخضر يا لايق عَ كمّو

وانت يا عريس غالي على امّو

يا حنا يا اخضر يا لايق عَ عقالو

وانت يا عريس غلي على خوالو

يا حنا يا اخضر يا لايق عَ كمامو

وتتصدر أمي الغناء فترفع صوتها:

سبَّل عيونو وماد ايدوا يحنولو

غزال زغير بالمنديل يلفولو

يا إمي يا إمي عبيلي المخاداتي

وطلعت من الدار وما ودعت خياتي

سبل عيونو وماد ايدو يحنولو

غزال زغير بالمنديل يلفولو

يالمي يالمي طاويلي المناديلي

وطلعت من الدار وما ودعت انا جيلي

واطلعت من الدار وما ودعت انا امي

أنا الغربية وهيلوا يا دمعاتي

سبل عيونو وماد ايدو يحنولو

غزال زغير بالمنديل يلفولو

يا الاهل يا الاهل لا يجير ليكو خاطر

شو الي عماكو عن ابن عمي هالشاطر

يا الاهل يا الاهل لا يبري ليكو ذمه

شو الي عماكو عن ابن الخال والعم

سبل عيونو وماد ايدوا يحنولو

غزال زغير بالمنديل يلفولو

ايويها... بحنة مكة جيت احنيكي

ايويها... يا بدر ضاوي وألحلى كلو ليكي

ايويها... ما بتلبق الحنة إلا لايديكي

ايويها... يا فاطمة زينة العرايس لمحمد اوديكي

وتتجمع الزغاريد في زغرودة طويلة راقصة فرحة الوووووويش

ايويها... يا شعرك شعر السلسبيلي

ايويها... ويسلمي هالكم الطويلي

اويها... ريتو يحرصك الله

ايويها... من عين الحاسد والعزولي

الوووووويش

وتستمر الاغاني طربة ندية عابقة بالفرح الأخضر:

حنا يا حنا يا ورق النبات– يا محلى الحنا على أيدين البنات

حنا يا حنا يا ورق السريس– يا محلى الحنا في ايدين العريس

حنا يا حنا يا ورق الليمون — يا محلى الحنا في ايدين المزيون

وحملت أمي، كباقي نساء القرية، صرة من ذلك الحناء الشهي البهي المبرق المشرق المعتق في الذاكرة...

وانطلقت الفاردة من بيت العريس تصحبها الأغنيات القروية ولهاثي أنا الراكض خلفهم ألوح بالعصا وأردد خلفهم كلمات ليست كالكلمات..

وفي سير "الفاردة" من منزل العريس إلى منزل العروس، كان الجيران يلقون السكاكر والورد من شرفات منازلهم على الفاردة احتفالاً بالزفاف، وكانت حبات الملبس ترتطم برأسي ووجهي وأنا أراقب تلك العيون الفرحة وهي تلقي علينا تحيات الفرح حين يكون فاردة، وعند وصول الفاردة إلى منزل العروس ذرت النساء الأرز والملح على المدعوين.

وتجمع قسم من سكان القرية وبعض من أقارب العروسين أمام بيت العروس وملؤوا الساحة الكبرى أمام البيت، وأما النساء فدخلن الدار وهن يهاهين ويزغردن.

وقع العريس شديد عن الفرس وهو يختال بلباسه الجديد أمام عروسه، ولما دعيت العروس للركوب أغمضت عينيها خوفا وارتباكا وتمنَّعت، فحملوها وألقوها على السرج، فتشبثت بالزمام والسرج،

وسارت بها الفرس إلى بيت العريس ترافقها عيون القرية كلها بالزغاريد والأغنيات. وتهادت فرسا العروسين وسط شباب القرية وشاباتها

لا أعرف السبب الذي منعني من حضور حمام العريس، لعلي انشغلت بمراقبة نساء القرية وهن يرسمن لوحة الفرح، فرح الفراشات على بستان الحياة القروية، ولكنني سمعت غناءهم يعانق التلال والجبال، ويمشي في السهول الواسعة الخضراء بعد خروجهم من بيت معتز الذي أصر أن يكون حمام العريس في بيته، ويرتفع الصوت مرة أخرى:

عطرلو شليشو هالعريس

غالي ع اهل حوشو هالعريس

واحلق يا حلاق وعطرلي شليشو

نيّال العريس الغالي ع اهل حوشو

عطرلي منديلوٍ هالعريس

غالي ع اهل جيلو هالعريس

عطرلي عقالو هالعريس

غالي على خوالو هالعريس

عطرلي محرمتو هالعريس

غالي على مرتو هالعريس

يخـرج العـريس مـن بيـت صـاحبه باتجـاه بيـت العـروس، فترتفـع الأصوات:

طالعين من باب هالدار لا بسين ملبسين

لا بسين الجوخ الاخضر على كتوف السلاطين

وابعدو العريس عن خيو من عيون الحاسدين

طالعين من باب هدار لابسات ملبسات

لابسين الجوخ الاخضر على كتوف البشوات

وابعدو العريس عن خيو من عيون الحاسدات

العريس وربعو راكبين مهارة العريس وربعو راكبين مهارة

زغرتيلو يامو يام اسوارة لخوف بنيك لتصيبو العين

يا مرحبا هذا بنية معاهم والخيل تلعبو على الصفين

ياسَمَك عظمك جرحني ياسمك وليش ما تنعم علينا يالملك

ياسمك عظمك جرحني باليمين ليش ما تنعم علينا يا وزير

ياسمك عظمك جرحني بالشمال ليش ما تنعم علينا يا سلطان

في سوق الجية يا عريس بيع امك في سوق الجية

رطلين هدية هات لي بحق امك رطلين هدية

في سوق الساحل ياعريس بيع امك في سوق الساحل

جوز المكاحل هاتلي بحق امك جوز المكاحل

ظله عليك اسم الله جبنا لك غزال محنى

حنن يا قرع حنن شوف الحلوة بيجنن

طولك طول عرابي باشا شوفك خلا الناس دهاشا

يا ظله لا تهتم رجالك شرابين الدم

....

اعطيني ثوبك ترقص فيه وبنص الليل تعالي خذيه

يام الثوب سباغ الهندي ما بقيلك حاجة عندي

يام الثوب ال الطرزتيه حطيت البلاوي فيه

عن جويزك خبيتيه ولعشيقك فرجيتيه

يا محلا ضرب الشباري في العدا والدم جاري

ياويل اللي يعادينا يطلع برة يلاقينا

ياويل اللي نحاربو بالسيف نقطع شاربو

ياويل اللي يحاربنا لو وقفت شواربنا

ياظله نور العين يازمردة في قلادة

ياريت امك جابت اتنين يوم الحبل والولادة

بابور على الجسر ممدود وخشبة من لديد النجارة

واحنا حزام المتاريس لو صارع البيض غارة

يا صاحبي ناديلي نادي من فوق ابو عرف مايل
عن خويلفه للبساتين ما يسكنوها قبايل
يا عينها عين الحور يا خدها كما الدوحان
يا شعرها كمالف الغمور وحدهن بالدهان
يابنت جملك نهشني واجت نهشتو في الملاية
ورمان صدرك دهشني وخلى فطورك عشاية
ياريت طيرنا موس واطير على جناحو
واهدي ع الخد وابوس واقول طابت جراحو
درج يا غزالة يارزق الحلال
درّج يا حبيبي ريتك من نصيبي
تلولحي يا دالية يا ام غصون العالية
تلولحي عرضين وطول تلولحي لقدر اطول
يلعن أبو المدارس غلّن مهر العرايس
يلعن ابو الجامعات غلن مهر الطالبات
يام الثوب ال طرزتية حطيتي البلاوي فيه
وعن جويزك خبيتيه في نص الليل تعالي خذيه
الهيلمان الهيلمان
الهليمان على تمو تمو يا خاتم سليمان

الهيلمان على طولو طولو يا عود الريحان

الهيلمان على عيونو عيونو يا فتحة فنجان

الهيلمان على شعرو شعرو يا ريش النعام

الهيلمان على سنو سنو يا لولو ومرجان

يردد اللويح ويرد الشبان والعريس في الوسط

كنت أعزب داير مجنون

بلعب بين الشبّان

قاللي عقلي واتجوّز

قسمة نصيب أخذت الزين

حبل الزين وجاب غليم

وصار يقوللي يابابا

بدي حلاوة منفوشة

مديت ايدي ع الجيبة

لقيت الجيبة منكوشة

ومنو منو صار الغوش

وع السرايا ودوني

ألف عصاية ضربوني

ويا ثعلب ويا مكار

وايش دلّك ع باب الدار

دلني ما دلني

دلني ابن عمي النمس

اللي لفتو قنطار

يا بنت ياللي في البيت لا تحسبيني جنيت

يا بني ياللي في الدار لا تحسبيني غدار

لولا الحكومة والحكم قاسي

لانزل ع ابوكي بموس الكبّاسِ

لولا الحكومة والفدائية

لانزل ع ابوكي بموس وشبرية

يا رمان رمان مليسي يا رمان كلو على كيسي

كان بيت العريس ساحة أخرى للرقص والغناء وازدحم بالرجال والنساء والأغنيات والطبل والزمر.

سمعت في زوايا بيت العريس بعض الوشوشات التي كانت ترافق العيون والشفاه في حركات لولوبية:

- صام صام وفطر على بصلة

- شوفي شوفي أبو العريس عند الكبرة جبة حمرا

- شوفي شوفي أم العريس قدها قد الفارة وصوتها ملات الحارة

- ياعمي، معك قرش بتسوى قرش

امرأة عابسة وهي تميل بكفها ذات اليمين وذات الشمال: مكعوشة ومكرمشه مسلسعة ومكنزعه، ومنخارها المرفوع مكرّن، وصوتها مخنن، لا منظر ولا مخبر، شو اللي معجبو فيها

وحين هم شديد بالدخول على عروسه التفت إلى الصخرة التي تتربع عليها المضافة، ثم نظر إلي، وانتقلت نظرته إلى أبي شديد، وكم كان فيها من رجاء وحيرة!

على العتبات

قلت لهم إن عتبات الدور في حارتي كانت مراكز إعلامية ثابتة، بل إنها كانت مراكز رصد واستطلاع تعرف كل شاردة وواردة، كانت النسوة الجالسات على هذه العتبات قادرات على الوصول إلى الخبر وسبكه وحبكه، وإنتاجه وإخراجه، وتهييره بما يلزم إن كان يلزم. .وعلى العتبات كانت لنا حكايات وأسرار، وكان الورد فيها وجهتنا وعلى العتبات كان الموعد اليومي للجارات، وفوق رصيف ذلك الوقت كانت حارتي تصحو تلاقيني على وقع من الأحلام والآمال والأصوات؛ دجاج يشتكي، وأرانب تراقص القطط التي راقت لها الدنيا، وصوت الديك الذي ما زلت أسمعه يزغرد، ويهلل ويكبر، وصراخٌ الجوع في طفل رماه النوم، وطرْقٌ عابق بالود، وأغنية لفيروز، وشيخ يقرأ القرآن، وتلميذ تذكر أنه قد نام ولم" يحلل وظيفته"، وآخر خائف يجري على عجل، عصا الأستاذ في أذنيه، تسأله تسائله... كان الحب موالا على العتبات يلقى في أنين الفقر فوق رصيف ذاك العمر أحلاما وآمالا ربيعية..

وما زلت أذكر ذلك المسكين الذي كان يجيء عند العصر ليبيع السوس والخروب والليمون والموال ممزوجا ببعض الحب والتعبِ، وكانت جارتي تصحو تنادينا، تعالوا عندنا...نأتي، وبالشاي الذي في

البال تبسم لي، تلاقينا، تقول لنا: عجنت... خبزت..وذاك غسيلي المركون عند الباب منتظر يصبحنا يمسينا. وتسألني إذا ما اسطعت للخباز (الفران) أبي محمود، خذ لي هذه العجنة وبعضا من صوانينا ...

وعندما تنهي صعود الدرج المرتبط بزقاق قريتي ارتباطا روحيا وجسديا وفكريا تصطدم بعتبات الدور المتلاصقة المتقابلة المتراصة المتساندة، وتفاجئك مجموعة من أمهاتنا وقد احتللن نصف الطريق وحولهن أعواد الملوخية، أو أعواد الزعتر أو الشجّيره(الميرمية)، ولعل الاستقبال الذي كن يستقبلنني به كان يختلف عن أي استقبال، وذلك لمكانة أمي بينهن، ولأنها كانت هي من تتصدر فتح أبواب الكلام ورمي الأمثال والأغنيات المعنة في النقد

- تعال ولك يا قاروط، اقعد هون، غني لنا، حط أمك بالطنجره"..ويضحكن برقة وبراءة وجمال، فأغني لهن فيزددن إشراقا وجمالا ورقة....

كن يخترن المشاهد التي يعلقن عليها بعناية، ويخترن الكلمات بخفة، وعلى ألسنتهن كانت تنمو حياة عميقة ممتدة متشعبة رسمنها بالأغنيات القصيرة الناقدة،أو بالأمثال الشعبية اللطيفة..ومجموعات من أسراب الأمثال والأغنيات والعبارات التي حفظتها عن أمي عن

أمها عن جدتها عن سلسلة من الجذور الراسخة في أرض قريتي بيت إيبا..

بره، كلاب أهل صره يتورشعنك

ولك يا مكشل جيب المكشول

كش بره وبعيد

دلعناه تشخ بالباطيه

أخذتها من عبد الله وتوكلت على الله (حبة الدواء)(عقله شقفه

يما اعطيني الفدائي لو ببلاش نزل الأرض المحتله لابس رشاش...

كثيرة ومتنوعة هي العبارات والأغنيات والأمثال في مجالس العتبات تتجدد ولا تشيخ

المتمرد

قال إنه سمعهم يهمسون: "والله ما بعرف شو أسوي بهلولد بنقولو شمال بيروح يمين بنقلو يمين بيروح شمال، دايما راكب راسو، وما بينفع معو شده ولا لين..، قال أبي بحزن وحسرة.

قال جارنا أبو سعيد وهو يحرك يده حركات مهتزة شاقولية ولولبية:الله يعينكم عليه، طالع طلعة بتخوف، الولد كثير شقي، كأنو شارب حليب ضباع!

وكم دعوت الله أن يتوقف هذا المتشح بالغضب، أبو سعيد عن الحكي لكي لا يصل إلى الشكوى، فهو قد هددني أمس بأن يخبر أبي عن دخولي إلى بيت النار في مخبزه!

نعم، أنا لا أنكر أنه وجدني أحاول معرفة مصدر النار، وطريقة اشتعالها وديمومتها...

وأنا لا أدري ولا أعرف ولا أستطيع التكهن أو وضع فرضيات للأسباب التي من أجلها يتهمني الناس بالشقاوة والتمرد، لكنني أعترف أنني لم أكن أقبل بالممنوع لأنه ممنوع، فكلمة ممنوع تعني لي: افعل واكتشف وامض وامش، بل إنها تقول لي هيَّا و تعال...

والحقيقة التي لا يعرفها أحد من قريتي هي أن ذلك الرفض قد ولد معي، فأنا كما قالوا لي قد رفضت الرضاعة من ثدي أمي أسبوعا أو أكثر، وكررت ذلك مرات أصابت من حولي بالقلق والخوف.

وليس للتمرد الذي في دمي أي علاقة بعلامات الرجولة التي غزتني على حين غرة وأنا لم أعش بعد طفولتي، بل لم أعش نصفها

قالوا لي لا تقترب من الشارع، فاقتربت ورسمت على الزفتة بالحجارة الطباشيرية شمسا وكوخا وممرات ترابية، وسرت عليها حتى جرتني قدماي إلى تيه امتد يومين أو أكثر...

قالوا لي يا محمد، الجيش وحش لا يفرق بين صغير وكبير فلا تلق بالحجارة على سياراته، وبعد انسحاب سيارت الجيب المخنوقة بالكاكي كانت القرية كلها تفتش عما يمكن أن يكون آشلاء محمد بين شجيرات اللشلون...

عرف أهلي طبعي فتركوني وشأني، وكانوا يتبعون المثل إياك أعني واسمعي يا جاره "إذا أرادوا توجيهي إلى أمر، أو تحذيري منه، وكذلك فعلت جاراتنا وجيراننا

"محمود ابن ابو خالد ما بيقطع فرض، وما بيقول لأمو غير حاضر وأمرتش" قالت أمي وهي ترفع صوتها وتلونه بحذر وحرص "

والله ابن فتحية، سالم، ما شاء الله عليه! من المدرسة للدار ومن الدار للمدرسة، بدو يصير دكتور كد الدنيا! قالت جارتنا أم الحلو وكثيرا ما كنت أفاجئهن فاماحكهن، وأسرق أحذيتهن، وألقيها في بئر الماء ليعدن إلى بيوتهن وهن يرددن ما يؤنس الروح من الشتائم:

مش هلكد الدلع

هالفلعوص مكشل

هذا مش بنيآدم هذا كرد

دلعوه دلعوه تشخ بالباطية

ولن ينسين ذلك اليوم الذي أدخلت على مجلسهن فيه أفعى نزعت أنيابها، كم صرخن وركضن وبكين حتى جاء المنقذون الشجعان من كل اتجاه لإنقاذهن

أمسك أبي الأفعى من رأسها نظر إلى رأسها الممزق،ثم أطلق نفخة فموية من غضب وأسف، فقد عرف أنها من عملي، فهربت فركضت القرية كلها خلفي تحاول الإمساك بمن كسر حاجز الصمت الرقيق اللطيف الشفيف في قرية وادعة على جبل من جبال نابلس، وظلت المطاردات مستمرة حتى ودعت الشمس تلك الجبال...

ولك يا عكروت، يا سويد الوجه، لو قرصت هالحية وحدة من الجارات شو بدنا نعمل؟

يابا! بس الحية ما بتقرص لأني خلعت نيابها بشبشبي!

....

لم يعد مجلس أمي عامرا كما كان؛ فقد منعت النسوة من زيارة بيتنا، ومن منهن خالفت أوامر الرجال، وهن قلة، كانت تجلس على قلق كأن الجن تحتها، فتظل تتلفت وتتفحص وتنتظر وتنظر في كل اتجاه،ولا تتكلم في أمر يخصني أو تنطق بجملة فيها اسمي كان رجال القرية يستوقفونني كثيرا، وينهالون علي بنظراتهم الحاقدة، ويمطرونني بأسئلتهم السابرة المستطلعة الوقائية المستكشفة المتعسسة، فهم لا يعرفون من سيكون التالي على لائحة هذا الصبي الغاضب..

وين رايح

وشو بإيدك

شو بدك؟

وين أبوك؟

وين مسند وليش جاي لهون؟

وبكثير من الأمر والنهي كانوا ينهرونني

روح عالدار!

لا تلعب هون!

اترك العصا اللي بإيدك!

هات اللي بإيدك!

ولم أستجب لهم يوما، ولم أطعهم فيما يأمرونني فيه، فكنت أتظاهر بعدم سماعهم أو عدم فهمهم، ولا التفت إلى شتائمهم، ولكنني كنت أسترق النظر إلى وجوههم لأرسمها في ذاكرتي المليئة بالأسماء والوجوه القاتمة، ولأسجل أسماءهم في لائحة حمراء غاضبة تدور كحجر الرحى في ذاكرتي

- يا ابو جمال خلي ابنك يكف شرو عنا!

- يا جماعة كبروا عقولكم، انحمد هاظا اللي جايين علشانو عمرو ثماني سنوات!

- صحيح عمرو ثماني سنوات بس هو مثل الحية المقرنة! ما ظل حدا في القرية إلا وأكل نصيبو منو.

مهو انتو لو تتركوه بحالو رح يتركوا بحالكو، ثم التفت إلي وقال: صح يا سويد الوجه!

حاربتني القرية كلها؛ فقد تحاشاني أترابي، ولم يسلني الرجال كما هي عادتهم، وابتعدت النسوة عن الممرات الترابية التي أسير فيها، وحتى أن المعلمين في مدرستي كانوا يخاطبونني بقلق وارتباك، ولم يكونوا يحاسبونني على تقصيري ومشاغباتي كما يحاسبون أترابي!

كان مدير المدرسة هو عايش ابن مختار القرية، سمعته أكثر من مرة يقول للمعلمين محذرا:

عاملوه كأنو درج، لا تيجوا فيه! خلونا بعيدين عن شره، وعن القيل والقال ونوادر القرية.

ولما وجدت هذا النفور، وهذه المقاطعة الصارمة من أهل قريتي صرت أجلس على الصخرة المطلة على بيوت القرية الطينية وأغني بصوتي الجهوري أغنيات تشير إليهم، وتنتقص منهم، وتهددهم بالويل والعذاب، ولكن من غير أن أذكر أسماءهم

أبو رعد بغضب: صار يغنيلي

يا بو الكنباز البني شفتك شفتك يا حليلك

يومك كرَّب من ثمي يومك كرب يا حليلك

ثم أردف قائلا وأنا ما جيت فيه ولا حاكيتو:

ابنك بهددني يا بو جمال بهددني!

واما المختار فوقف أمام أبي راجيا متوسلا، مش كويسه بحكي يا بو جمال، أنا، يكولي:

جاي دورك وشو ما صار اسمح اسمع يا محتار

كلبي مولع مثل النار بدو راسك يا ختيار

شو كصدو هالجرو شو كصدو،وشو عملتلو أنا، شو عملتلو؟!

عاد المختار إلى بيته بعد تطمينات واثقة من أبي

ولكن المختار ظل يحوم في مضافته سارحا محتدا:

أبصر شو مخطط لي هل الكزعر الشيطان

وقف المختارأمام أبي وقال:سمعت شو غنالي:

بدك تشكي اشكي برقة. خايف؟ البسها للخرقة!

واعرف كدامك الكروكه اللي بتوكل كل الصيصان

- يا بو جمال، طول عمرنا أهل وحبايب، بنزرع سوا، وبنسرح سوا، واحنا من عيلة وحده، بيصير ابنك يقولي:

ومنا ناسي وحياتك لا تهددني بنظراتك

كلبك مثل جاجاتك ويومك قرب يا فهمان؟!

وتعددت المواويل والأغنيات، وتعددت الاسترحامات والشكاوى والتهديدات، فسجنت، ولطمت، وحبست، وعُلِّقت، ولكني بقيت أغني، والوجوه من حولي بقيت ترتعد خوفا أو غضبا...

كانت المجنزرات التي حاصرت قريتي بحثا عن الفدائيين قد اصطدمت بذلك الطفل نفسه:

- وكِّف وله!

ولكنني لم أقف

- وكف يا حيوان، وركضوا إلي بعصيهم وبنادقهم، وطرحوني أرضا بمجموعة من اللطمات والضربات والركلات قال أحدهم:

- انت وين رايخ؟

فلم أجبه، ولم أظهر له أني سمعته

فلطمني لطمة أدمت وجهي

- سألتك وين رايخ؟

ولم أجبه

قال أحدهم بالعبرية كلمات متتابعة جعلت الجندي الذي استوقفني بلطماته وضرباته يضربني بعقب بندقيته على كاهلي وهو يقول:روخ يلعن...

ولكني لم أغادر، وبقيت أنظر إليهم لأرسم وجوههم على قائمة حمراء حمراء. وعلى النوافذ المطلة وقفت عيون نساء القرية ورجالها وهي تتوسل إلي أن أروخ بعيدا عن أيدي الجنود وبنادقهم...

الغريق

قلت لهم ذات مساء: حظي الجذر (غ ر ق) بعناية الأدباء والسياسين والصحفيين في الزمن المعاصر؛ فعليه اتكأت كثير من أخبارهم وقصصهم وأفلامهم وأغنياتهم، فكلمات مثل: غرق، وغارق ومستغرق، وغرقان استخدمت في الزمن المعاصر بكثرة دالة.

وكان أترابي يعرفون ولعي بالغرق، فيسألونني دائما عنه، وعنِّي غارقا،وأين تعلمت الغرق،وكيف، ولم.. ولكني لم أكن قادرا على البوح بما في صدري من أسرار وحكايات وقصص عن الغرق وأشجانه وألحانه وأغنياته.وأما وقد بلغت من العمر عتيا، ولم يعد لي في الحياة من مطمع أخشى عليه، ولا هدف أحرص عليه، فإنني قررت أن أطلق سراح ما يعتمل في صدري وما حبس فيه من غير ذنب...

ولكي تعم الفائدة، ويفيد أصدقائي وأهل قريتي جميعهم من تجربتي في الغرق سأبوح بسري الكبير الذي لولا معزتي لهم ما بحت به، ولبقي مع مارد روحي ملفوفا في صدري مع كثير من البرديات واللفائف والمخطوطات، ولكي تفهمني آذانكم وتعي ما سأقول لكم، عليكم أن تؤمنوا معي أن الغرق إدمان،وطقس متوارث الحركات والكلمات والإشارات، ولا حاجة له بلغاتنا وحروفنا، فمع أنه يجيء بلسان

مُدمنِه وبحركاته وبلغة جسده، إلا أنه فكرة هلامية زئبقية يستطيعه من رغب فيه، فأنت إذا ذقته مرة لن تنس الطعم "بالمرة"

ويكفي الغارق غرقة ليكون مدمنا، بل حجة في إدمان الغرق وفقيها فيه مفوها؛ وأنت إذا ذقته مرة فإنك لن تنس الطعم بالمرة.

وأقول إن الغرق رغبة دفينة في الروح ومهارة مكتسبة، وليس فعل هواة، فهو أنواع وأشكال ودرجات، فكما يحمل لاعبو الكونج فو الأحزمة الملونة يحمل الغارقون أحزمة تدل على مراتبهم وتشير إلى مدى تمكنهم من مهارة الغرق قولا وفعلا، فليس الغارق في البحر كالغارق في النهر، وليس الغارق في الدين كالغارق في المين، وليس الغارق في التين كالغارق في العجين، وليس الغارق في الجبن والخوف كالغارق في المناسف والقطرميز والعنصبيخ،وليس الغارق في الحب ويجره الشوق ويسحبه الحنين ويتحكم به الغرام ويتيه به الهيام كالغارق في حل واجباته الدراسية واجترار ما تلقاه وتلقفه عن أساتذته ومعلميه، فالغرق، كما قلت لكم، أنواع ودرجات....

والحديث عن الغرق والغرقى يملأ صفحات حياتنا في القرية، فهو حاضر في شعرنا ونثرنا وأغنياتنا ومواويلنا، يردده الصغار والكبار، فتسمع عنه في الباص المتجه إلى عمان، وفي الباص المتجه إلى رام الله.حتى إن جارتي، التي افتنَّت في إسماعي أغنيات الغرق والغرقى من

العشاق كانت توحد الأصوات في نغمة واحدة تقول: إني أغرق أغرق، أغرق،إني أتنفس تحت الماء

ونحن في قريتي نغرق في الأشياء كلها، فنحن نصف أنفسنا بالغرق، فنغرق في الحب وفي الدراسة وفي العمل، ونغرق في شبر مي. والغريق عندنا لا يخشى البلل، ويتعلق بقشة وغارق لشوشته. ونحن في قريتي الجبلية النابلسية تعودنا أن نصف أنفسنا بالغرق، فحين كنا نسأل عن حالنا كانت إجاباتنا مليئة بالجذر (غ ر ق).

"مسكين غارق في الدين، والله لا يرده غارك في الحرام، والزلمة غارك بحبها وغارك لشوشته، وهيوبفعفط وراها مثل الغريك المتعلك بكشه، واسمع يا حبيبي ولا يهمك، الغريك ما بيخشى البلل...."

ولأني لست غطاسا وأغرق في شبر مي، ولأني أعرف أن المية تكذب الغطاس، اتقنت الغرق ومهرت فيه وعلمته ودرسته ولقنته، وأنا تعلمت الغرق طفلا في البحر الميت، ولعلي أول من غطس في أعماقه وفتش عن صدفاته،فقد كنت في السادسة حين وقفت على تلك الصخرة العظيمة وألقيت بجسدي النحيل إلى ذلك البحر المالح العظيم، وفي روحي ترقص أحلام وصور وخيالات وينتفخ إصرار على

رؤية القاع الواسع الأبيض مصدر الملح العجائبي، وكم عانيت عانيت ولا ماء ألوذ به ولا منشفة تسعفني، وكم بكيت حينها كم بكيت...!

ولا أذكر إن كانت سنة الروث السنة التي وقعت فيها في بركة روث البقر كانت قبل سنة الغرق الأولى أم بعدها، ولكني أذكر أن القرية كلها قد غاصت وشتمت ولعنت.

دعوا ذا، فأنا منذ ذلك اليوم حتى هذا اليوم وأنا أتعلم الغرق، وأكتشف طرقا جديدة تقود إليه، جمعية وفردية، فمع أنني بلغت من العمر عتيا وأنا أمارس هذه المهارة إلا أنني ما فتئت أبحث بشغف عن أي حركة غرقية جديدة أو فكرة غرقية لافتة أصيلة،وأنا في بحثي هذا وذاك كنت أراقب كل صغيرة غرقية وكبيرة في قريتي الجبلية النابلسية بدقة وبرقة وحب، كنت أراقبهم طفلا وهم يغرقون في الحياة والموت، ساسة ورعايا، ورجالا ونساء وأطفالا وشيوخا والحديث عن الغرق ذو شجون فأنا الغارق في الحب الذي تناقلت الألسن قصته، وترنمت بمواويله، أنا ذلك الطفل الذي أحب فراشة الفرح، وبنى معها قصورا عالية من الكلمات، وأسمعها دقات قلبه أغنيات ريفية تفيض "حبا وحنانا ورقة" كما قال عنها شاعر المضافة الحكواتي أبو خالد، وكما وصفتها أمي:

ولك هيو بطلع منك حكي حلو، هات سمعني شو كلت وانت تغني ايمبيرح بزيق الحيط عند كرمية الشجرة....

- أنا ما كنتش أغني، وما كعدتش هناك امبيريح

لكنني كنت أعرف، بيني ونفسي، أنني غنيت:

يا زريف الطول و كاعد لحالي والحلوة مرت وما سألت مالي

بيدي شاورت وقلت يالغالي، يا بو عيون السود اسأل عننا

يا زريف الطول وطولت في الرد، وأنا من صمتك حيلي والله انهد

وعديت الورك والنجم يشهد إنك أنت الروح واغلى احبابنا

يا زريف الطول ويا حسره عليك، مرك من جنبك وما سّلم عليك،

ولو شاف الحلو شو اللي صاير فيك، قضى كل العمر يبكي جنبنا

يا زريف الطول وما سلم عليك، مرك من جنبك وما سأل شوفيك،

ولك يا مجنون ليش تظلك هيك بتغرك بالعيون وتنساني أنا

كانت المواويل التي أنثرها في حقول القرية تنتشر على الألسنة التي كانت تتساءل من هي تلك الفراشة التي غيرت محمدا وسحرته وأسرته، وشغلت عيون القرية بمراقبة محمد في مشاويره كلها، وتتبعت الفاحصات عيون الصبايا ليعرفن من هي، وغرقي في الحب هذا جعل أيامي كلها أحاديث ناعمة عن فراشة الفرح، وجعل نهاراتي كلها انتظارا لها...

وغرقي في القراءة قصة أخرى من قصص الغرق والغرق التي تتناقلها ألألسن بتندر وبابتسامة، فقد أغرقتني الكتب في بحورها فغرقت فيها وبين رفوفها وبين أناملها، وكم من مرة أغلقوا علي أبواب المكتبة وأنا غارق في رواية، أو ملتحم مع قصيدة، أو منكمش مع فكرة مفكر! وكم من مرة استوقفني حارس المكتبة وأنا أحمل تحت إبطي كتبا وبين كتبي كتبا، وفي عيني كتبا! وكم من مرة صرخت إعجابا بغرقي في كتاب، أو مشهد، أو فكرة فايقظت عيون المبحرين في الكتب المتسمرين بغراء الصمت فوق كراسي المكتبة!

لكن الغرق الغرق الذي يشبع حروف الجذر غ ر ق غرقا هو إصراري على معرفة رأسي من رجلي، وكوعي من يوعي، وجدي من هزلي، وحلمي من حقيقتي.وحرفي الأصلي من حرفي المزور،وصديقي من عدوي، وصدقي من كذبي،وأنا من غيري، فالغرق في تصنيف الناس والأشياء والعواطف هو الغرق لأن بحر الحياة متلاطم متزاحم قاعه ينفتح على سطحه، وسطحه عرضة لهجمات الريح وطرقات الروح، وطعنات الدهر....

المجاكر

وقلت لهم: أنا لا أعرف العلاقة التي تجمع بين طبيعة عمل الجوكر وفعل المجاكرة، وأنا أعترف لكم، وبكل صراحة، أنني لا أعرف أوراق الشدة، ولا قصة الثلاث ورقات، ولا غيرها مما يحمل اسم الجوكر، أو يشترك مع المجاكرة في الجذر، وأن كل ما أعرفه عن المجاكرة هو من باب جاكرني وأنا جاكرته، وإياك أعني واسمعي يا جارة...ولعل المرة الأولى التي سمعت فيها هذا المصطلح كانت من مدير مدرستي (أبي سلطة) في سنة البطيخ التي تلت سنة النكسة، أي بعد النكبة بعقود، حين كانت ثمار البطيخ على غير عادتها تملأ أراضي القرية،وتملأ أراضي مرج ابن عامر، وكانت ثمار البرتقال تثقل أغصان الأشجار وتشاكسها بخفة دم طفولية.....

-ما بدك تواخذني، ابنك جكر،وبحب المجاكره! قال مدير المدرسة هذه الجملة ويداه مفتوحتان، ورأسه يتأرجح بغضب وقهر مكبوتين

- يعني؟ قالها أبي وهو يعض شفته، ويشير بكف متحلفة متولفة لي، بالثلاثة حينا وبالطعموزة حينا....

- ابنك مش تاع دراسه، بنصحك لله، قالها مدير المدرسة من كل صماصيم قلبه بعد أن عبأها بكل حرارة أنفاسه، إنك تشوفلو شغله

أو مشغله، يا سيدي روح اشتري له حمار وخليه يحرث عليه، قال المدير بانتصار وزهو مليء بالسهام الجارحة.

- له له، يا مدير، هاظا لساتو طفل، يعني بيتعلم!

- طيب، انت لما دخلت وين كلتلو يوكف؟ مش كلتلوا: وكِّف هناك! طب شوف وين صار، هيو متعنكش على المعرش، بدو ينط على دار أبو محمود، إذا كدامك بيعمل هيك، كيف وراك!؟

قال المعجم:

والمجاكرة بمعناها العربي الفصيح: المناكفة والتحدي بالفعل أو بالقول. والفعل جاكر والاسم مجاكرة...

وأما بمعناها المتعارف عليه بين أهل قريتي فهي العمل على حرق راس الآخر أو شعطه، ومطاردته بالفعل أو بالقول حتى يخرج عن سكَّته، ويظهر ما في جوفه، وينضح لنا مما فيه...

وأنا أرى أن المجاكرة غير التحدي والمجاقمة، وإن التقوا وتماسوا في بعض الحركات والاستراتيجيات...

والمجاكرة فن قديم عميق الجذور، واسع البحور، كثير السطور، متعدد المدارس.

وهي هوايتي الأحب، وفني الأقرب إلى القلب، الذي بنيته ونميته في سعة من العيش وضيق.

ولي رأي في المجاكرة لم يعجب كثيرا من أبناء قريتي، فأنا أرى أن المجاكرة فطرة فطر الله الناس عليها؛ فكل أبناء قريتي كلهم أخذوا عني المجاكرة العربية وأحبوها وبرعوا فيها، ومنهم من تخصص بها وذاع صيته واشتهر، ودرسوا علي يدي المجاكرة الإسموزية، والمجاكرة الشاقولية والمشائية والإغراقية والتبحيرية والحركية.

وكم من وقفة كانت لي معهم بيَّنت لهم فيها طرقا منها منتقاة، ودربتهم عليها؛ ووضعت لهم كثيرا من الأسس والقواعد الجكرية منها: صاحب عدو المُجاكَر، والبسْ له ما يكرهه، وغنّ ما لا يحب أن يسمع، وقف حيث يراك...!

- ولك انحمد، انت اللي كتبت على حيط المضافة!

- لع يابا، مش أنا! هو أنا بسترجي أكتب؟!

-"عايش جكر تتجنن البشر"، ولك انت المجنون، ورح تجنني!

لقد اكتشفت موهبتي في فن المجاكرة وأنا في الصف الأول حين جاكرت مدير المدرسة الذي منعني من شرب الماء من زير المعلمين.

وقد توضح لي بعد معرفتي بالفعل جاكر أنني من المجاكرين المتمرسين، وأنني وبالفطرة أحمل الحزام الأسود الفاحم في المجاكرة، بل إنني مفطور على المجاكرة، وأنها هي التي تقود حياتي...

وتوضح لي أيضا أن فعل المجاكرة يسيطر على سلوك أهل قريتي؛ نسائها ورجالها وشبابها وصبایاها، وحتى على سلوك شيخ القرية ؛ فهو المجاكر الأول فهو يطيل إن قالوا اقصر، ويقصر حين يقولون له أطل، ويجمع في وقت يتطلب القصر والجمع...

وما زلت أذكر وجه أبي طرَّاق المحمر المتغضن بالغضب والقهر وهو يقول لأبي عن زوجته عليّة: يا زلمة جننتني، أكلها مجاكرة، وشربها ونومها وصحيانها، ولبسها، يا زلمة بدي بدي افقع!

قال أبي بمنطق المجاكرة الهزلية: جارنا ابو العبد تزوج الثانية مجاكرة بزوجته الأولى لأنها كالتْلو إن حمار أبو سعدون أكوى من حماره، وتزوج الثالثة مجاكرة للثانية لأنها نسيت أن تطعم الدجاجات، وتزوج الرابعة مجاكرة بنسوائه. اللي انتكدن اختياره للحلس، وشراءه لجام مستعمل.

وأنا سمعت أمي تقول إن جارتنا أم شريد حملت مجاكرة بضرتها التي تنجب البنات، وقصت لي قصة زواجها الجكري، وكيف أنها دائما تجاكر ضرتها أم البنات بأغنيات الطهور؛ ففي كل موعد حمَّام تغني لابنها بصوت مشاغب في حوش الدار:

طهرو يامطهر وناولو لامو

ابني بكره زلمه يخليه لإمو

طهرو يا مطهر... وناولو لأمّو

ويا دموعو الغاليه... سقطت على كمّو

طهروا يا مطهر.....بالموس الماضي

يا إبني المدلل.....بعدو مش راضي

طهرو يا مطهر.....واعطيه لعمو

ابني ولد شاطر... يخليه لأمو

وأنا نفسي رأيت أم مراد في فاردة مراد حين أوقفت سرب النساء أمام بيت أم سعيد وصارت تهاهي وتزغرد وتغني مجاكرة بأم سعيد؛ لأنها ما رضيت أن تعطي بنتها سميحة لابنها مراد.

والمجاكرة كانت قد غدت فعلا جمعيا في قريتي، بل جزءا من سلوكهم؛ فهم في زفة العريس يغنون "هون واربط باب الدار تا تطلع بنت المختار، وازرع واقلع باتنجان يلعن راس ابو الزعلان،وأم العريس قوية بتصلح قايد دورية...

ونساء قريتي هن الأبرع في هذا الفن فحين كنت أتبع أسرابهن في الزفات كن يغنين أغنيات تفيض مجاكرة، ويهاهين مهاهاة تقطر مجاكرة وبخاصة تلك التي كانت ترددها أم علي الفران على نول فلفليهم:

آويها واحنا البيض احنا الزنبك اللي فَتَّح

آويها يا ماخذ البيض يا ربي عليك تِفتح

آويها يا ماخذ السُمُر يا معَثَّر يا مكرسح

آويها ويا ماخذ البيض تتمسى وتتصبَّح

لللوللييييييييش.

آويها إحنا البيض إحنا الخوخ بِعناكو

آويها يا نجاصنا السكري يا سِعِد من ذاكو

آويها وكولو لجوز السمرا إيبَرّد اخلاكو

آويها الدبس حَمَّض بالصحون وما حدا ذاكو

لللوللييييييييش.

آويها رجالنا ركصت ونسواننا غنّت

آويها ورایاتنا البيض من فوك الجبل طلّت

آويها واللي مَرّكت ع جَمِعنا و ما سمّت

آويها تكبر بكراتها قبل الشمس ما وَلَّت

.لللللوللييييش

آويها يا عروس كتلني سود عيونك

آويها تلملم الحُسُن من الأرض رجاجيلك

آويها بنات حارتك يتفرجن عليك

آويها لاهِنّ مثلكن ولا يتشبهن ليك

آويها وإحنا عادتنا نركب الخيل

آويها ونلبس الحرير أكمامنا للأيدين

آويها وأي نذل مرك عَ ابوابنا بالليل

آويها بنسبي حريمه ويبكى مذبحه شبرين

لللللوللليييييش.

آويها يا سمره يا مشحبره

آويها منين جبتِ الكندره

آويها والكندره لا بكتلك

آويها وانت اللي لابسه

اللي ع الحبل مغندره.

لللللوللليييييش.

آويها يا بيضا تحاكي الكمر بالّحَلاه

آويها والسمرا تِحملك عن الوطاه

آويها يا ماخذ البيضا يا سعده يا هناه

آويها يا ماخذ السمرا....توقع في الشكا

لللللوللليييييش.

قال لي أبي وهو يعظني: يا بني ابتعد عن المجاكرة فإن المجاكرة لفعل عظيم، يا بني، افعل ما يطلب منك ولا تجاكر حدا برضاي عليك، ما خليت إلنا صاحب....

أما أمي فكانت تحكي لي قصة الملك حمدان وتذكِّرني بها، وكنت أحب نظراتها وهي تحكي لي بإيحاء عميق:

كان يا ما كان في سالف العصر والزمان ملك عادل شجاع حكيم اسمو حمدان، وكانت مملكته واسعة فيها جبال وأنهار وسهول وبحار، وكان الملك يحب شعبه، ويسهر الليالي وهو يفكر في كيفية إسعاده، وقد أحبه شعبه وأطاعوه فيما أمر، وتبعوه وما عصوه، وعاشوا في عهده أياما سعيدة هانئة، كان الجنى فيها دانيا وفيرا، والماء غزيرا...

- يما، شو معنى هانئنن؟

- سعيدا

- طيب، ليش قلتِ هانئة سعيدة مادام الثنتين الهن المعنى نفسهون؟

- انحمد!

- نعم يما؟

- إخرس يما، إخرس!

وأكملت حكيها، وهي تراقب عينيّ لترى مدى تأثرهما بحكيها.ثم أكملت: وفي يوم مثل دك الثوم وكع الملك عن الفرس على راسو ومات

– الله يرحمو، ليش ما وكع على رجليه؟

صمتت أمي ونظرت إلي نظرة شزرا،ثم أكلمت ونبرات صوتها مثقلة بالغضب:

وكان للملك زوجتان متباغضتان متحاربتان متصارعتان متجاكرتان

- يما شو معنى متجاكرتان؟

- والله يما انت ابوها وسميها!

- أنا يما؟

- يما، بطلت احكي، فك عني، وله، روح من وجهي، وابعد يبعد الواح ايديك!

لم يكن النهار قد أغلق أبوابه بعد حين نزل المختار عن التلة، ونادى أهل القرية وصاح:

يا أهل قريتي، يا ربعي وعزوتي، علشان ما تكولوا مختار قريتنا ما ردّ الردّ اللي يشفي الغليل على مطاكعات مختارهم ابو سروال مركع، بعلن الكم إنو أرض البصة بما فيها وكل ما عليها مش رح أزرعها السنة سمسم!

قال الجمع بصوت مستحب:أها أها

بدي أزرعها دخان، وخلّيني أشوف شو بدو يزرع أبو طكيعة، ووين!

لم تكن المجاكرة غائبة عن كل ما ورد عن المختار من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة، ولهذا كانت جدتي تظل تقول لي: هالمسخمط جابني وحطني هون في خربة المجاكرة، عند المبوزات المكرمزات للشر والمناكره، ولك اطّلّع عليهن كل وحده منهن بوزها شبر، وبودي عالكبر!

وكلما سألتها: طيب ليش رضيتي فيه، وانت نابلسية وهو فلاح ما بريح ولا بيرتاح؟

كانت تقول لي بغضب:

ولك حتى انت يا مكشل بجاكر فيّ؟! كال ارضينا بالبين والبين ما رضي فينا، ولك كم مرة كلتلك انا تجوزتو مجاكره بمرة أبوي إم منكار...

وبما أن أهل قريتي اتفقوا على أن الصراحة راحه، فإنني أعترف بأن هذا النص مقصود، يعني مجاكره....

المترفة

وسمعوني أقول: من يظن أن ركوب الحمير سهل وآمن ويستطيعه كلُّ إنسان، وواهم من قال مستخفا ومنتقصا ومستهزئا: هذا حمار، وحمار الشعراء، وحمار الدولة؛ فالحمير مخلوقات ذكية صعبة المراس، متعددة الأمزجة، مختلفة في ردَّات فعلها، وفي سلوكاتها، ومختلفة الألوان والأصوات والأحجام والقدرات، لها ما يشغلها من هموم وتطلعات، ولها حركات جكرية معروفة تختلط بالعناد والمداقرة، وتكاد تشبه في سلوكها سلوك البش، فما أعرفه عن الحمير لا يعرفه من أبناء قريتي إلا من تمرس في تربيتها وامتطائها وراقب سلوكها عن كثب وحب ورغبة، فهو وحده، ولا أحد غيره، يستطيع تصنيفها أومعرفة مزاياها وتحديد خصائصها، فليست الحمير كلها سواء، فمنها العنيد ومنها الرشيد، ومنها عالي الهمة، ومنها الخنوع ومنها القنوع، ومنها الجزع الفزع، ومنها ومنها...ولا يعرف كثير من الناس أن الحمار في قريتي الجبلية النابلسية كان علامة من علامات الغنى، فأمام بيوت القرية الحجرية الطينية والعقود تقف الحمير بأنواعها وألوانها بدلال وزهو، وفي ممراتها الترابية كانت مجموعات الحمر القبرصية تتبختر وتتغندر من ضفة لأخرى ومن حقل إلى حقل مع مجموعة من البغال والحمير البلدية، ولعل المثل

الذي يقول "مثل الحمار القبرصي" قيل قبل اكتشاف أهل قريتي لقيمة الحمار، أو لعلها قيلت للمدح لا للذم؛ لأن الحمار القبرصي كان غالي الثمن، ولم يكن يستطيع شراءه إلا علية القوم؛ المختار، وأبو سالم، وسعيد بائع الزيت.

وقد كان امتلاك ذلك الحمار الأبيض العالي صاحب السرج الوردي المنمنم المزخرف الموشى، والعينين الساحرتين، والرموش الممتدة برقة ونعومة ودلال حلما يلازمني، فلم أكن أكف عن مراقبته وهو ينهق، أو وهو يرمع طعامه، أو وهو يعسل بجراكن الماء بخفة ورشاقة في الطريق الترابي من النبع إلى بيت أبي سعد... هبوب الريح الحمار القبرصي الأبيض العالي المستحم كان الحمار الأول الذي اشتراه أبي، وكان حمارا عنيدا كثير السرحان، يقود ولا يقاد، ويمشي براكبه إلى وجهة واحدة لا يقبل غيرها، بيت صاحبه الأول أبي جركن، فما الحب إلا للحبيب الأول!

وأما الحمار الثاني فكان حنتروش، اشتراه أبي بعد أن أيس من إصلاح حال الحمار الأول، وتطور علامات الحب عنده وتغيرها إلى تتنيحات طويلة، وحرنات ممتدة متواصلة عن الطعام والشراب، ومجاكرات عريضة بالصوت والصورة أربكت أبي ووضعتني بين خيارات أحلاها مر. كان حنتروش أو العضاض كما سماه أهل القرية

ضخما أكولا شغوفا بالعمل وبخاصة الحراثة، يسعد بها ويرتاح. ولما وجد أبي فيه ذلك أعاره وأجّره، وأشغله وشغّله،ولكن عمر الزين ما يكمل، فقد كان في حنتروش عيب لا يُصبر عليه، إذ كان يرفض أن يمتطيه أحد، وما حاول أحد ركوبه إلا لقي من العض والرفس ما يذكر في المجالس ويقص ويحكى عنه مع ابتسامات ملغومة، وضحكات مزلزلة، فقد عضني عضتين في يدي، ورفسني رفسة طيرتني أمتارا، وعض ترفة ابنة جارنا أبي السمن، وفضية ابنة جارنا أبي الزيزفون، وعض خالد ابن أبي رباح.

ولما كثر شاكوه وقل شاكروه، وازداد عضه ورفسه، وكثرت الجاهات والعطوات باعه ابي بثمن بخس.

وأما الحمار الثالث فكان رحروح الأشقر صاحب الوجه الباسم الذي يسر الناظرين، وهو الحمار الذي لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا مفيدا، فهو ما قدر على مجاراة أعمالنا في الزراعة والفلاحة، ولا صبر على طول بقائنا في الحقول، فكان يهرب حاملا معه زوادتنا، وكثيرا ما لقيته عند نبع القرية واقفا يراقب حمير الفلاحين وهي تجهد نفسها في حمل جراكن الماء، أو وهي تحرث لهم الحقول

وأما الحمار الرابع شرشر فكان مجنونا له حالات، وبه لوثات، ولـه علاقـات مريبـة، وفي صـدره ثـارات معتقـة، وأحقـاد مغلفـة بالصمت؛ ومن ذلك أنه كان يلقي بمن يمتطيه فجأة إلى الأرض من غير سبب، وفي إحدى لحظات جنونه وهي كثيرة عنفص شرشر وركل وقفز وتلوى كأن أفعى بين رجليه تهاجم قدميه ألقى بي في لب صبرة الـدردوك، وهـو قبلهـا ألقى بـأبي السـالم في أتـون تلـك الصـبرة، وقـد أقسم أنه ما كلمه ولا ناداه ولا نهره أو آذاه، وخوفا على سلامتنا باعه أبي...

وبقي حلمي بامتلاك الحمار الأبيض يلوح لي حتى يوم صارحت أبي بما أتمنى

فقال لي وهو يمتلئ حبا وحنانا وعطفا: يا بوي الحمار الأبيض غالي كثير...

وفي الليل سمعته وأمي يعدان النقود، ولم يمض وقت طويل حتى كان الحمار الأبيض مربوطا أمام بيتنا الطيني الحجري، فركضت إليه فرحا غير مصدق أن ما يقف شامخا أمام عيني ببياضه الناصع وعلو همته هو لنا ...

غدا سأركبه إلى النبع، ومن ثم أطوف به في أحواش القرية، سأخوض به اللشلون، لا لا أخاف أن يتسخ بياضه، سأطارد عليه في

أرض النحايت، وخلة السلامة، والنجايم..سيكون نظيفا مزينا مدندشا، سيسألني أهل القرية لمن، ومن أين وكيف؟ ولن أجيب، هذه كانت وصية أمي؛ فقد قالت لي:" لا تعطيه لحدا ولا تركب عليه حدا، ولا تحمل عليه اشي ثكيل."..

وجاء الصباح فاحتضنت ليفة وتأبطت فلقة الصابون، وبدأت بغسل الحمار الحمار وتلميعه وتزينه ودندشته، ثم ركبته، وفي ممرات القرية استعرضت قوته وجماله وقدراته على الكر والفر واللف والدوران والانعطاف والتوقف، فتنادى أطفال القرية للسباق والمجالدة فركّضت الحمار فركض، واستعجلته فعجل وتعجَّل، وركض وفاز.

كان حمارا بكل ما تحمله لفظة حمار من معانٍ حمارية.

تعلقت بالحمار الأبيض كثيرا، وأحببته حبا جما صافيا صادقا، فقد دافعت عنه في السراء والضراء، وترفقت به فلم أدخله حقلا، ولا حملت عليه جركنا، ولا غمر حطب،وما أطعمته إلا من لذيذ الطعام، وكنت قبل أن أنام أغني له أغاني الإنسان، وأسمعه من أغنيات الأعراس. والزفات ما يجعله طربا وظللت على هذه الحال من الحب والتعلق حتى اكتشف أبي أن الحمار الأبيض نسي أنه حمار..

رفرفات

وقال لهم يوما: قرأت سلمى أمام الطابور الصباحي:

أنا في الساعة الأولى من دفقة الحياة يرفرف على قلبي ما تيسر من عبق الصباح القروي، والناس يأخذها الطريق من الجهات الواسعة إلى الحقول، وأنا يعلقني حديث ساقه المطر البهي إلى عيون الجالسين، والخبز في الطابون، وقصيدة شربت ظفائرها ابتسامات الشباب على حواكير الربيع، وأنا على جسدي الفراش وسوسنات غرها اللون المحلِّق في يديها، وحديث أمي: يا بني، هنا وقفتُ هنا هناك، وتحت أوردة النشيد، والكل في لحن القصيدة طائر من خيط جرح، وأقول أيتها القصيدة، هاتي دموعك كلها ودعي الحصاد وغناء جداتي على لحن الفرح، قولي الذي في البال من شفقٍ وليل، وتدثَّري بدم القلق، لا تنظري نحوي بصمتك سوف يحرقني الأرق...

في الساعة الأولى أنا والشمس في جسدي تحركُ ساعديها، وأنين سنبلة تفتش عن بنيها، سبع هنا، سبع هناك، والكل يحلم بالمئات، أرجوك يا جسدي الموزع في حوانيت السياسة والخطابات المعتقة الزكيه خذني لأفرش درب روحي فهي تبحث عن تكيَّه، خذني بألسنة الوداع وصوت آهات الجياع، خذني لأسقي ما تبقى من خطى

نحو الحقول... خذني إليك فإنني قلب عجول...والساعة الأولى مضت، كانت أنا...

صفق الطلاب بحرارة، ورشت المعلمة سلمى بكلمات الثناء والمديح، انتظمنا في الطابور المسطري، ودخلنا الغرف الصفية على وقع نظرات المعلمات والمعلمين وهم يرمقوننا بحب وزهو وحنان...

المتهرب

قالوا له: عندما ترى القرية كلها تركض بقلق وخوف فاعرف أنها تركض وراء محمد، فلا تتردد في القول مثلهم "أبصر شو عمل أو أبصر شو كان بدو يعمل"، فهذا طبعه، خلق المشكلات وابتكار المصائب، ولا تتردد في الركض خلفه، ومحاولة إمساكه؛ فأنت تدفع، إن فعلت، عن القرية شرا عظيما

وها هو محمد يركض عاريا والقرية تركض خلفه فاركض لعلك تؤجر وتشكر..

وكانت القرية كلها تعرف ما يعذب محمدا. وهي لذلك تلاحقه كلها حين تراه يركض عاريا يوزع قدميه على ممرات القرية الترابية،وكانت القرية كلها تنادي وتصيح: امسك امسك امسك، امسكوه!

وكم تفقدت جسدي بعد كل حمام خوفا من أن أكون قد فقدت رأسي أثناء "تشليحي" وإخراج رأسي عنوة من تلك "القبة" الضيقة، أو أن أفقد أضلاعي المتوجعة الباكية بين يدي أمي وهي تفرك بلا رحمة أو هوادة جسدي النحيل الباكي المتوجع بالليفة الخشنة !

كان حمام اللجن عقوبة بلا ذنب، وثأر كل صاحب ثأر، ووقتا للقرية لا عليها، فبعد كل حمام يرى أهل القرية آثار الليفة والصفعات على جسدي النحيل براقة تلوح كالهلال في الليلة الظلماء.

وكان للقرية علي يوم آخر يذكر ولا يعاد، وهو اليوم الذي أمسكوني فيه وجرُّوني إلى المطهر جرا، وألقوني بين يدي ذلك الكهل الطويل صاحب الحقيبة الكالحة والأدوات الجارحة، الذي كنت أحسب لطلاته وزياراته مواقيتها ومواعيدها، فأستثير الطرق والأشجار والحقول لكي تبتلعني وتخفي ملامح وجهي.

"لعل الهروب والتهرب هما النتيجتان الطبيعيتان لاجتماع الضعف والرفض في جسد، أو لعلهما تمارين يمارسها الطفل بالفطرة ليتعرف بهما حدود عالمه، أو لعلهما وسيلتان هجوميتان دفاعيتان تولدان مع الطفل لتعيناه على ما ستقترف يداه؟ وأنا تعلمت الهروب والتهرب صغيرا؛ فقد هربت كثيرا حتى إنني سميت نفسي المتهرب، وخفت كثيرا حتى ظننت أنني وحدي في عالم الخوف.

خفت من ظلي فهربت حتى ابتلت قدماي به، وطمرت رأسي بالأغطية الصيفية والشتوية خوفا وهربا مما كان ينتصب أمامي على خزانة، أو على باب، أو على نافذة أو على حائط. وخفت من القط

الأسود كثيرا فقد كان يستثير مارد الخوف ويوقظه في قمقمه فهربت منه..

وخفت من البوم وتحاشيت النظر إليها، ووضعت أصابعي في أذني لكي لا أسمع نعيقها، فقد تعلمت أن لصوتها ما بعده.فإن لاقيتها غير باغ ولا عاد فتكحيل عينيها،وتسريح برجاء وخوف.

وأنا أتقنت التهرب والهروب وأنسته وألفته وأدمنته، فهربت كثيرا وكثيرا وتهربت كثيرا وكثيرا، تهربت من أسئلة كثيرة عن الذكورة والأنوثة، وعن الموت والحياة، والوجود وواجد الوجود... وأسئلة من فعل ومن لم يفعل، ومن يرى ومن لا يرى، ومن مع ومن ضد، ومن ما ومن وكيف ولم وهل...

كنت أتهرب من علمي إلى الفراغ، ومن جهلي إلى الحقول حيث تتدلى الأسئلة هازئة مني مرات ومرتخية مترنحة بين عيني مرات، كنت ألجأ إلى العتبات على الأرصفة الثملة برائحة الأقدام المثقلة بتلاطم المخاوف والرغبات والحاجات والهمسات فأبثها قلقلي المتقافز مع نبضات قلبي وأنا أرهقه بالركض والهروب.

وعندما تلقي المصائب التي أثرتها والتي لم أثرها علي بظلالها الثقيلة كنت أهرب إلى فراشي، حيث أتكور هناك منتظرا أن تخنق

الرزايا نفسها، فقد كان النوم ملجأ آمنا لذلك الطفل الصغير، وخطا أحمر لا يجوزه أحد فهو برعاية أمي...

سأله المختار لم يا محمد؟ فأجاب محاولا منع عينيه من الوصول إلى عيني أبيه المشتعلتين: لأني حلمت أن هذه الحمارة عضتني ورفستني!

- والديك؟!

- الديك، ضرب جاجتنا ونزل دمها!

- طيب، وكمباز أبو العبد وسرواله وحطته وين رحت فيهن؟

القرية تنظر بشغف وحرص إلى أصابع محمد، وبشفقة إلى عيني أبي العبد الذي فقد قمبازه وسرواله وحطته

رميتهن في اللشلون..

طيب، وابواب القرية شو عملت لك، ليش بتدق عليها بنصاص الليالي وبتهرب؟!

ابتلع أبي رقصة الغضب الصاخب، وعصارة القهر والخجل، وحبس ما استطاع من مسبات" يا مسخوط يا حريق الوالدين اسبقني عالدار يا...

تعودت القرية أن ترى محمدا هاربا يركض في شوارعها وحقولها وتعودت هي أن تركض وراءه، وتعودت أن تراه بين يدي

المختار وهو يُسأل عما اقترفت يداه، وعلى تهربه الماكر من الإسئلة وعلى نظراته البريئة...

لم تكن القرية تسأل عما يُركض محمدا ولكنها كانت تنتظر بشغف جلسة محاكمته في المضافة...

وعندما سمع محمد أن للدبابير عشا، قال لنفسه، الأعشاش ليست لأحد، وإذا أخذت ما فيها لن يطاردني أحد...وشاهدت القرية كلها محمدا وهو يركض متلاطما متوجعا صارخا، ولكنها هذه المرة لم تركض وراءه فقد تركته يصيح ويبكي خوفا وألما ووجعا وهو يركض في الممر الترابي الذي اكتنفته أشجار الصبار" سألوه:، لم يا محمد، لم عش الدبابير؟

لكنه هذه المرة لم يكن خائفا، ولم يتهرب من الإجابة، وقال وهو يصارع الألم والانتفاخات في مسامات جسده كلها: العشاش مش لحدا، العشاش لله!

المتكوِّر

نعم أنا هو، ولا أحد غيري، لا أحد إلا أنا يعرف السبب الذي من أجله حجزني أبي شهرا كاملا في البيت، ولا أحد يعرف إلا أنا وأبي أنني من علَّم أولاد الحارة التكور في كراتين (صناديق من ورق) الشبس والسمنة، وكراتين الناشد والسلفانا، وأنني هو من كان يزودهم بها؛ فأبي هو صاحب الدكان.

ولا يعرف أحد سبب عشق أولاد القرية للتكور في الكراتين المنتصبة في وسط الشارع، ولكن أهل الحارة كلهم يعرفون أنه في كل كرتونة ملقاة في شارع القرية طفلا متكورا، وأن محمدا ابن صاحب الدكان يعيش متكورا في كرتونة صغيرة، ولعل الأصابع الخجولة التي أشارت إلي غاضبة لائمة بعد أن داهمت سيارةٌ الكرتونة التي كان يتكور فيها ابن الفران هي نفسها الأصابع التي أشارت إلي بعد أن حملت سيارة جمع القمامة الكرتونة التي يتكور فيها قط خالد ابن الخياط...

لقد أحببت التكور في الكراتين، وفي البيوت الحجرية التي كنا نفتن ببناء جدرانها وبصناعة أسقفها مما توافر من طوب وحجر وخ ش ب وكرتون..

كنت أملك جسدا نحيلا ضئيلا مرنا قابلا للطي والتكور والتشكل والتخفي والاختباء، فقد تكورت للاختباء في النملية، وتكورت خوفاً في الدوشك، وعلى السدة، وفي مد الفراش، وبين الأغطية، وتحت الخزانة ذات وجوه الفورمايكا، وفي صندوق سيارة جارنا أبي عمر، وتكورت في فريزر البوظة خوفا وطمعا...

وأما آخر مرة تكورت فيها فكانت وأنا في الصف الخامس عندما تكورت تحت لوج العروس وحدث ما حدث، وصار ما صار.

ولم يفتر حبي للتكور حتى بعد بلوغي،وحتى بعد دخولي الجامعة فكم تكورت فوق المقاعد أو تحت أشجارها العالية، أو بين دفتي كتاب، في حضن قصيدة؛ لقد عشقت التكور وعشته فتكورت وتكورت

لم أكن وأنا طفل في الصف السادس أعرف أن التكور عند القبور في الليلة الظلماء ممنوع بل إنه ممنوع في كل وقت! قال لي أبي:"هو ممنوع ممنوع ممنوع!

"هو ممنوع يا محمد لأنك قد تفاجئ زائرا للمقبرة يحمل كثيرا من الخرافات والمخاوف فيصاب بالرعبة التي أصابت جارنا أبا سعد حين رآك متكورا عند القبر الأبيض وسط المقبرة، وكما حدث لجارتك أم حرب في فجر عيد الفطر حين فاجأتها فرمت الحلوى وسعف

النخل وبكيت (صفط)الحلقوم الذي أحضرته معها إلى المقبرة وولت هاربة مولولة..."

وعلى الرغم من كل التحذيرات فقد ظل الطفل في داخلك يا محمد يناديك كي تتكور، ويناديك بنداء الحبيب الأول؛ ففي الصف السابع تكورت ونمت على غصن شجرة الخروب العالية الوارفة الظلال، و كم حمدت الله أنك خرجت من المشفى برجل مكسورة ويد مشعورة، وأضلاع معصورة و...! وفي الأول الإعدادي أمنتَ فتكورت فنمت في الخابية، ولما مدت أمك يدها لتغرف ما تحتاج من قمح اصطدمت يدها بيدك فصاحت مرعوبة وولت هاربة..."

ومن حبي للتكور أحببت القطط، وحننت عليها وأغدقت عليها من كل ما كنت آكله، فقد كانت (أو أو) المتكورة الهارة رفيقي الأثير الأعز، تنام عند قدمي، وتظل تنظر إلي بحب وحنان، ومع أن أبي منعني من إحضارها للبيت أو السماح لها بالدخول إلى غرفتي إلا أنني كنت أغافل الجميع وافتح لها فراشي لتنام وادعة هانئة فيه، وكم كانت صدمتي كبيرة حين عرفت أنها استغلت حبي لها وعطفي عليها لتحقيق مآربها؛ فقد سطت على حمام أبي في يوم فتحت لها فيه باب الدار لتنام عندي،وأكلت الزغاليل كلها، وكم عاتبتها على ذلك، وهي لا ترد ولا تشعر بأي ندم...

تكورت كثيرا، وأحببت التكور، وكل ما يتكور على هذه البسيطة،فتعاطفت مع كل ما يتكور القنافذ والقطط، وحتى الكلاب تلك التي لم تتعاطف معي يوما، وهي من المتكورين، وعدت مزاحي معها يوم مررت من جانب بيت أم سعد اعتداء فلاحقتني ملاحقة القط للفأر حتى قبضت علي وانهالت على جسدي النحيل بكل ما لذ لها وطاب من النهش والعض، وعدت منادتي لها يوم كنت أسير في المنازل أرض الزيتون التي تجاور الوادي عدته اعتداء على جرائها فلاحقتني وأخذت قطعة من بنطالي وتركت على فخذي وردفي وسم أسنان وندوب سكاكين وحروقا لأسياخ حديد باحثة عن جراثيم غازية، فأنا لم أفلح يومها بالهروب منها فلجأت للصبارة التي ألقت علي معاطفها...

- تعال يا قليل الحيا!

- خير يا أبو سعد؟

- برضيك إنو ابني يظل مبحر ببطن مرتك؟

- لع برضينيش طبعا؟

- ابنك هاظا، بالطالعة والنازلة مبحلق عنيه ببطن مرتي، ما بكميش عنيه عنو، شو رأيك، بتقبل هلحكي؟

المتسلق

قلت لهم: أنا المتسلق، وبيت إيبا هي قريتي الكنعانية التي تنتصب شامخة على قمة جبل من سلسلة جبال جرزيم وعيبال وتطل صباحاتها على حقول واسعة مليئة بأشجار الزيتون واللوز والخروب والرمان والتين والصبار، وأشجار الزيتون الرومية العالية الضخمة، وتغرب الشمس فيها على جلسات من حكايات وسمر، وابتسامات من صفاء، ونقاء، وحب، مبنية على طرفة عاطرة، أو قصة ساحرة، أو منظر عابق بالود، ولعل أكثر ما يتوهج في ذاكرتي من حياتي فيها هي تلك المواسم المتتابعة من الجنى، موسم الزيتون، وموسم الصبر، وموسم المكانس وموسم اللوز، وموسم التين...ولعل موسمي الزيتون واللوز هما من أكثر المواسم التي تتراقص بحنان في ذاكرتي لأني كنت واحدا من المتبعرين وليس أي واحد؛ فأنا كنت الأمهر؛ لأني كنت المتسلق الأمهر، وما كان أحد يستطيع أن يكون متبعرا مرموقا مذكورا محمودا إلا إذا كان متسلقا ماهرا مثلما كنت أنا، فأنا كنت متسلقا مخاطرا جريئا مندفعا لا يخاف ولا يتردد،فقد كنت أضع حزامي بين قدمي وأتسلق أعمدة الكهرباء، وكثيرا ما وصلت قريبا من الأسلاك، وقد كان تسلق الأعمدة لعبة من ألعابنا

التي تذكر ولا تشكر، فكثيرة هي المرات التي(لطشت) الكهرباء فيها واحدا من المتسلقين.

ما أعرفه أنني أفدت كثيرا من مهارتي في التسلق لجمع المال اللازم لأعيش أياما ناعمة معدودة في طفولتي، فقد رأيت أن كثيرا من أشجار الزيتون العالية تحمل حبات كثيرة، وأن أمي، وهي الحريصة، تخلت عنها بعد أن يئست من قطفها

" إذا كانت أمي وهي أمي لم تستطع الوصول إلى ذلك الفرَّاع، وذلك الفرع، وتخلت عما تحملان من جنى بعيد، فإن أهل قريتي الذين أحنى الدهر ظهور أكثرهم سيتركون خلفهم ثروة ضخمة من الزيتون واللوز، وهذه الثروة لي أنا وحدي،وإني لقاطفها وصاحبها..."

كان مختار القرية هو الذي يعلن موعد قطف الزيتون، وهو الذي كان يعلن انتهاءه، ولم يكن أحد من المتبعرين يجرؤ على دخول الحقول إلا بعد أن يعلن مختار القرية انتهاء موسم القطاف، ولكنني كنت ممن يسمعون القول ولا يتبعون أكثره، فأنا لم التفت يوما لما يلقيه المختار من أوامر ونواهٍ، فما أن يعلمني صاحب الأرض أنه انتهى من قطف زيتونه حتى أكون قد أعددت ما يلزم المتبعر من عدة وعتاد...

وسرت فرحا للتبعر في تلك الحقول المترامية الغناء، ومع أنني كنت عضوا فاعلا في كل عونة، إلا أنني كنت أتعمد ترك الغصون العالية مثقلة بالجنى لتكون لي حين أجيئها متبعرا

كانت شوالات الزيتون المُتبَعر تتكدس في حوش بيتنا، وكان عددها دائما يفوق ما تجمعه العائلة من حقولها الواسعة المليئة بأشجار الزيتون الكنعانية....

- ولك محمد كل هاظا بعارة! ولك والله يا قرد لو عرفت أو سمعت إنك فايت على زتون الناس لحرق عظامك!

....

المنقذ

قال لهم: صحوت قبل عامين ونصف على عبارات التمجيد والثناء والمدح والدعاء، وصارت طريقي في قريتي الجبلية المنسية فوق قمة جبل نابلسي مزنرة بالخضرة والمواويل، بين وجوه باسمة، وأيد ملوّحة، وتسهيل وترحيب، وعبارات مزينة موزونة كثيرة انتشرت على أعمدة الهاتف وأعمدة الكهرباء، وعلى جدران البيوت وعلى بكس البندورة وبكس التين، وعلى ضمم البقدونس والملوخية..

فظننت أن القوم جنّوا فسايرتهم وماشيتهم ووافقتهم، فصرت أرد الابتسامة بمثلها، والتلويحة بأحسن منها حتى أعجبني هذا الواقع الجديد فركبته، ومن أذنيه شددته، ومن فمه أمسكته، وعلى صدري علقته، وكنت أقلّبه وأقوده إلى جهة أرغبها وجهة أرغب عنها، وأزيد من الابتسام، حتى استوت على التهليل لي الأقلام، ومضت الليالي والأيام وأنا على فرش منضودة، وزرابي مبثوثة وثيرة من التقديس والترصيص والتخليل والتخميس، تحملني وتطير بي العشيرة وأيد مصفقة كثيرة صغيرة وكبيرة حتى صدّقت نفسي. ورفعت بالأحلام رأسي، فصاروا ينادونني يا أيها المنقذ الملهم الهمام، ويا أيها الفارس المقدام، ويا أيها الحكيم الإمام صاحب الرأي السليم المنجي من الجحيم،فكانوا إن مرضت دجاجاتهم أتوني سائلين، وإن نشزت

خيلهم أتوني مستفسرين، وإن ضجت قلوبهم أتوني مسرعين، وإن عوت كلابهم أتوني خائفين، فقد أعطوني الولاية عليهم في أمور حياتهم كلها، واستأذنوني في أمور معاشهم كلها في حلهم وترحالهم، وموتهم وحياتهم، ومأكلهم ومشربهم. فانقلبت حياتي من نعيم ليلكي باذخ إلى جحيم صارخ، فوضعت بيني وبينهم حجابا وبابا، ودفاتر ومواعيد، واصطفوا والتفوا وداروا وحاموا وتحاموا، فعينت لي نائبين؛ نائبا للدفاع ونائبا للهجوم، ونمت في قصر من الفالوذج والمناسف والزبيب، والقطايف يحفني البطيخ والشمام، والدجاج المشوي والحمام، والبط والإوز وأصحاب الأقلام، سدنة الأعلام والإعلام والخرفان والصبيان، وتنقلت بين لياليّ مستسهلا السير مرتاحا هانئا بين راحة وراحة، حتى جاء يوم ظهر في قريتي وحش مفترس أكل دجاجهم وأغنامهم، وكسر أحلامهم فنادوني..

فجمعت مخاتير القرى كلهم ومعهم السدنة والكهنة والفلاسفة والبلاشفة وناشدتهم بكل ما يحبون أن ينقذوني أنا البطل.. وأن يشيروا علي كيف أفعل،وما أفعل بحالي وحالهم فقد حرت، وأخاف إن أنا كشفت واعترفت أن تموت قريتي...!

المدخن

أمسك سيجارة الريم بأصابعه وقال لهم: في ليالي الصيف الصافية كانت جلساتنا أنا وأترابي حول النار في الجبال لها نكهة التمرد، ومحاكاة الرجال ذوي اللحى والشوارب، وهناك كانت بدايات نفث اللاءات في الهواء، كأننا كنا نقول لهؤلاء الكبار نحن هنا

كانت أعواد الملوخية هي موئلنا لجلسات التدخين، كنت أنتقيها بذكاء وأقطعها بمهارة للمتحلقين حول النار كالهنود الحمر

- اشفط بقوة، واسحب نفس، ودخِّل الهوا لجوا

وننسجم كلنا في لعبتنا الخطرة ومحاكاتنا المغرية الماتعة

وفي سينما فلسطين في نابلس كانت التجربة أكثر عمقا، فالسيجار البني المغري كان في متناول يدي بعيدا عن أعين الرقباء، وفي الأعياد يتسامح الأهل ويغمضون أعينهم عن بعض التجاوزات، ويسمحون لنا بالذهاب إلى السينمات التي كانت تختار لنا من الأفلام ما يداعب فينا كل ما نحلم به ونطمح إليه ونعجب به، في سينما الحسين أشعلت أول سيجارة حقيقية، ونفثت الدخان على وقع ضربات بروسلي ودموع قمر وأكبر وأنطوني وأبطال الشاولين.

في سينما فلسطين في وسط نابلس كانت مشاركتي الأولى في تشكيل تلك السحابة الدخانية المتضخمة التي كانت تمتد وتتكوّن لتغطي سقف السينما وتصل مع نهاية كل فلم إلى مستوى رؤوسنا

-والله لحكي لأبوك!

ولم تكن السباريس التي يجمعها أترابي تغريني فقد كنت أقرف منها، ولكنني لم أنكر عليهم إشعالها والتمزمز بها كما الكبار لكنني حافظت على رغبتي البكر في التعامل مع السجائر ولن ينسى أترابي لفافات الورق التي كنت أفتن في إعدادها وتوزيعها عليهم وهم يتحلقون حول النار، ولن أنسى وجوههم الفرحة وهم يتمزمزون في سحب دخانها ونفثه في الهواء

- " كلو من انحمد ابن ابو جمال،هو اللي علمو التدخين "

-"الولد هاظا هامل ولا تخلي ابنك يلعب معو.

- ولك محمود تعال جاي، صحيح بكيت اتدخن؟

- لا والله يابا!

- هات اشم اديك!

يناول محمود يديه لأبيه بخوف

- ريحتك حرايك، يحرك الواح ايديك

- يابا، والله ما دخنت والله يا با، ما حدا دخن غير محمد ابن ابو جمال، بس هو اللي دخن. وهذا ما قاله بقية أترابي لآبائهم، وهذا هو السبب الذي من أجله أجبر أولاد القرية على مقاطعتي...

- احم انت احم

كانوا يتجنبون ذكر اسمي فأنا الإحم فإن نادوني قالوا يا إحم، وإن سألوني قالوا يا إحم إحم رز ولحم

وأنا أخيرهم بين إصبعي الخنصر والشاهد

مصولح ولا محورب؟

محورب!

ابصق على إصبعي وأمسح به حذائي وأنا أغادره:

اللي بصولح بصولح الله واللي يحورب بحورب...

مدير المدرسة: مع مين لقيت الدخان؟

معلم الرياضة وهو يأخذ بي من ناصيتي ويهزني هزا عنيفا، وهو يهز رأسه: مع هذا الزفت

- اسبقني على الإدارة

انتظار المدير والوقوف على باب الإدارة كان عقوبة قاسية لأنها مفتوحة على الاحتملات كلها، ولما فيها من توقعات وّأسئلة متوقعة..

المدير وهو يلوح بعصاه مرة أو يضرب بها كفه مرات: بتدخن وله؟

- لا والله يا أستاذ؟

وبعد ضربتين موجعتين وركلة توجه إلي بسؤال آخر: وهاظا الدخان لمين؟

- هاظا لأستاذ العلوم، اشتريتو الو من الدكانه هسع، واسألوه

ركلني ركلة خاصة وهو ينظر إلى معلم العلوم الذي أطل برأسه من غرفة الصف الخامس.

- انقلع على صفك!

المتنمِّر

يومها صرخ بمرارة حزن: كنت أنا، أنا الذي استوقفني مرتين وأخذ زوادتي ولطمني لطمتين هو نفسه الطويل دبدوب الذي كفّاه كمطرحتي خباز، وعيناه واسعتان كبحر هائج، وفمه كهف من غيلان وأفاعٍ، كان طويل اسما على مسمى طويلا كنخلة، وكعمودٍ عريض له حاجبان ورأس وعينان ولسان وشفتان امتد في السماء، وتطاول في البنيان، وكان يظن، وإنَّ بعض الظن إثم، أنه بجسده هذا يستطيع أن يكون أسد الغابة فتنمر وتبختر واختال وصال وجال، وما من حسيب، وما من سائل ولا سؤال، فتحدّيته ورمينه وعيّرته وشتمته وهربت منه، فلاحقني وحاصرني، ولكن الموج لن يستطيع التمسك بالشاطئ...

المتنمر وهو يمسكني من قميصي ويرفعني إليه: أنا طولي طول النخلة وعقلي عقل السخلة؟!! ثم لطمني، وألقاني على الأرض، وأجّلت أوجاعي وهربت، إذ لم يكن هناك متسع للآه في مكان فيه هذا الدبدوب الطويل الممتد..وفي المرة الثانية كَمَن لي بين الشجيرات التي تكنف طريقي اليومي إلى المدرسة، وقفز فقفزت، ووثب فوثبت، ولولا أن كلبه تشبث بسروالي ما استطاع الوصول إلي... وطرحني أرضا، ثم انهال علي بالضرب، وما تركني حتى رأى لضرباته آثارا وعلامات تلون

جسدي،...قال لي وهو يودّعني بابتسامة منتصر: روح وخبّر واحكِ وبشّر،وفرّح أمك وآبوك...،ووحيييياة أمي! كل ما تشوفك عنيا رح تذوق ضرب ايديا!!

ودّعني لحظتها صفو الحياة، فقد كانت تلك الجلسة آخر عهدي بنفسي، فقد انطلقت هائمة هائجة تدبر وتمكر وتكيد لهذا الطويل.. وكانت النتيجة سلسلة طويلة من ردات ثأرية، فيها تصيد وإغارة، ومكر ومهارة وشطارة، وكل ما يسبب لهذا الطويل قصر العمر من وجع وتشويه...

كانت الضربة الأولى هي الضربة السفلية استغللت فيها المراحيض إذ لم تكن المراحيض داخل البيوت، ومرحاض دار أبي طويل كان في زاوية بعيدة عن دارهم كما هي مراحيض أهل القرية، فتسلقت وزحفت وتسللت ودخلت، فملأت الإبريق البلاستيكي المدجن بالكاز، ثم تسللت وزحفت وتسلقت وجلست على غصن مطل وانتظرت...فصاح وركض، وهرول وقفز، ونط وصرخ، واستغاث وولول والعيون ترقبه وتتابعه بحذر وخوف...

أما الضربة الثانية فكانت الضربة العلوية وقد سمعت القرية كلها صوتا ملأ صداه الفوضوي جبال القرية، ورأت كلها الطويل وهو يقفز ويضرب ويدافع ويقاوم خلية من النحل اقتلعتها

من جذورها الصخرية ووضعتها أنا في(بيت الخارج) المرحاض وغلّقت عليها الباب، وفي المساء رأت القرية كلها وجه الطويل الملتهب الموشح المهبّر المتوجع المتأوه وهو ينزل من الحافلة القادمة من مستشفى رفيديا...

أما الضربة الثالثة فكانت الضربة الشاقولية

مختار القرية بقلق وريبة وحذر: يا محمد، طويل غلط، وتسرّع، وانت زلمة فهمان وعاقل، سامحه، وكبّر عقلك، خلص.. بكفيه، امسحها بهللحية، وهي بوسة راس"

لم يعرف الطفل النحيل ما يقول لهؤلاء الذين لم يتركوا حرف لين ولا حرف عطف إلا وسّطوه، وذلّلوه، ومسحوا لحاهم، وباسوا رأسه مرات ومرات، ما يقول لهؤلاء الذين سيسمعون صوت طويل بعد دقيقتين وهو يناطح الجبال ويتقافز بين حافات الوديان، يدفعه الألم والوجع، ونار تحرق عينيه، وتسقط الآهات من علٍ على قدميه، وانتشر الصوت مستعطفا مسترحما وإلى جانبه صوت أنثوي حاد يولول ويصرخ ويصيح.وسألني مختار القرية: انت اللي حطيت فلفل وملح في زير أبو طويل؟

- هو كل شي بيصير بتحطّوا بظهر انحمد!

المختار بصرامة:انت اللي حطّيت الحنش في علّيّة ابو طويل!

اكتفى الطفل النحيل بالنظر إليهم وإلى عيني طويل المتوثبتين القلقتين المرتبكتين

: يا ام محمد، انا داخل على الله ثم عليش، شوفيلنا ابنتش، واحنا مستعدين باللي بيطلبو، هو يؤمر أمر، منشان الله يا ام انحمد!

ركض محمد بسرعة باتجاه كرم أبي طويل فهو لا يريد أن تسمع أمه صراخ طويل وهي تودع أم طويل وتطمئنها.

المتفلسف

قال لهم: عندما ترى أن الفلسفة مهارة ونمط حياة فاعلم أنك على تماس مع حياتي؛ فأنا "بتاع كلو" هذا ما كان يعرفه عني أهل القرية وهذا ما أفهمتمهم إياه وأقنعتهم به، ولذلك كانوا يلجؤون إلي في أكثر أمور حياتهم، ويأخذون برأيي ويتبنونه ويدافعون عنه، حتى إنني صَّدقت الوهم الذي رسمته بشقاوتي عن نفسي، فأنا أقنعت نفسي أنها تعرف كل شيء، وتتقن عمل كل شيء، ولعل أول تجربة لي في معرفة الأشياء كانت حين دخلت عليَّ أمي وأنا أجلس فوق فراشي مرتعدا منتفضا مهتزا بعد أن لطشتني الكهرباء وأنا أحاول تصليح مسجل السوني الذي ابتلع شريط الكاسيت.ولن أنسى تلك الرعبة التي هزت أمي وهي تراني "كالشريطة"، كما قالت لأبي، ولن أنسى حرص أبي حينها على تحذيري من الكهرباء وخطورتها: يابا، يا حبيبي، كيف بتصلح المسجل وهو في الكهربا؟ لم أصدق أن أبي هو الذي تكلم معي لولا أنني سمعته يقول لأمي:" شو نعمل مع هالولد، لو ضربتو رح يعاندني ويرجع يبلكش بالكهربا ويحرك الدار واللي فيها"

ولم تهدأ أعمالي التصليحية؛ فبعد أن نجحت في تركيب بطاريات اللوكس اليدوي ازدادت ثقتي بمهارتي، فخلوت ذات يوم بالثلاجة، فككت عنها غطاءها الخلفي، ومسحت أنابيبها النحاسية،

وحين رأيت أنها قد امتلأت بالثلج قررت إزالته لأنال المدح والثناء، فتناولت من النملية السكين التي قالت لي أمي عنها وهي تعظني وتوصيني: " هذه الخوصة ياما يا نحمد بتذبح جمل" وبدأتُ التعامل مع الثلج المتكدس على جهة من "الفريزر" بالطرق الخفيف، وباليد الماهرة المتأنية،ولكنني سهوت، وجل من لا يسهو، فانبعث منها صوت تنفيس قوي حاولت أن أمنعه بوضع إصبعي عليه، وبكل ما أعرف من حيل وطرق، ولكنه ظل سادرا في تعذيبي وإرباك لساني الذي لم يعرف ما يقول لأمه التي ناداها الصوت، فجاءت خائفة راكضة، "ولك يا مكشل شو عملت، الله يقصف عمرك "،ولم أستطع سماع بقية المشتقات والمنحوتات لأني كنت في ممرات القرية أبحث عن شجرة تأويني وتعصمني من عذاب أليم...

وأما خبرتي في الطبخ والخبز فحدث عنها بلا حرج، فتجاربي في الطبخ كثيرة، وإن حدثكم أحد بغير ذلك فلا تصدقوه، فالحريق الأول الذي أودى بمطبخنا الريفي لم يكن من ذنوبي التي أحب أن أعترف بها، وإنما كان ذنب القطة التي قفزت إلى "القلاية" لتسرق ما بها من بيض، ودفعتني لضربها بزجاجة السبيرتو..

: طيب كيف وصل السبيرتو لأيدو "؟سأل أبي بغضب قاس

"ركَّبت الشمبر، وزيَّت اللوكس، ونسيت السبيرتو، شو أعمل بحالي المايل" قالت أمي.

وليس ذنبي أنني وضعت السكر على البطاطا المقلية لأن من وضع علبة السكر هو من يتحمل الوزر...وليس ذنبي ما حصل لطبق البيض الذي سرقته من الدكان لأصنع البيض المائي، فقد فقست في الماء المغلي طبق البيض كاملا كما ذكرت التعليمات، وتركته خمس دقائق هناك كما ذكرت التعليمات، ولكن، لمَ لمْ يكن الناتج كما في التعليمات؟ ومع ذلك فإنني خير من تؤكل القلاية من تحت يديه،وفقص البيض صنعتي الأثيرة، وقلي البطاطا لعبتي...

- "ارفع ايديك فوق رأسك ثم اقفز وبعدين ادخل في الماء براسك"

- "لكن يا محمد ليش في الأربعة متر خلينا في المتر نتعلم "

- " كأنك ما سمعت الشاعر البطل المقاوم وهو يقول ومن لا يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر"

- بلى سمعته، ولكن يا محمد، هذه بركة مي مش صعود الجبال؟!

- اسمع يا سعيد إذا بدك تظلك تتشعبط بحيطان المسبح عمرك ما رح تتعلم، خذها مني أنا ما تعلمت غير في الأربعة متر"

وقفزوا في الأربعة متر...وكان الليل صاخبا في المضافة التي امتلأت بالعيون الغاضبة...

كنا نعرف أن المسافة بين نابلس وبيت إيبا طويلة متعرجة، تزدحم بكل ما يخيف ويفترس، فبين أشجارها الكثيفة ووديانها المليئة بالمغر ضباع وذئاب وثعالب لها معنا قصص وحكايات كثيرة نحتسيها في كل جلسة سمر، ولكن ماذا نفعل وسينما فلسطين في يوم العيد أخذت منا كل ما معنا،ولم يبق لنا إلا المشي ملجأ فمشينا، ولما كانت العتمة مخيفة، والليلة كالح سوادها قالوا من يقودنا غيرك يا محمد، فكنت رائدهم الذي يجوز بهم ليلا بهيما لا يرحم ساريا ولا نازلا، وتقمصت الدور فصرت أطلب منهم أن يبطئوا حينا وأن يسرعوا حينا، وأن يصمتوا حينا وأن يمشوا على أطراف أصابعهم حينا، وهم مستسلمون مطيعون يفعلون ما يؤمرون، فأوقعتهم في واد سحيق مهلك وأخرجتهم منه، وأدخلتهم في متاهات لم يدركوها، ولم ينتهبوا على أنهم يسيرون خلف قائد يخبط خبط عشواء، ويسير بهم على غير هدى ولم يفقدوا ثقتهم به، بل لم يجرؤوا على التفكير بذلك...

- يا محمد الطريق طالت وتعبنا، مطولين؟

- لا، لا، راح الكثير وبقي القليل، اصبروا إن الله يحب الصابرين!

بكى أحدهم، وانهار آخر، وانقطع نفس ثالث، واهترأ حذاء رابع، وأنا أتأرجح معهم بين ممرات وادي التفاح حتى وصلنا زواتا، ومنها أطلت

بيت إيبا، ولوحت لنا أن تعالوا فقد تأخرتم، وأقلقتم قلوب أمهاتكم وعيونهن ...

وحين سألوني لم وضعت القهوة على جرح سالم، قلت كذلك وجدنا آباءنا يفعلون، وحين سألوني لم وضعت الملح في عيني السفروت،قلت لهم لتدمعا ويخرج ما فيهما من شر، ألا ترشون الملح على العتبات لطرد الشر عن بيوتهكم؟

كان الطب هوايتي كيف لا وأمي هي الداية والطبيب والمخرِّجة والمعالجة التي تركض إليها كل نساء القرية في كل حين مرض ...

وأنا الرياضي الأول، وحين سألوني كيف نفوز على هذه الفرق القوية ونحن بلا خبرة ولا خطط، قلت لهم أنا مدربكم فأطاعوني، اصطفوا في منتصف الملعب والعبوا على التسلل، فاصطفوا ولم يعرف الفريق المنافس كيف يعمل حتى انتهت المباراة، وكل من حضر المباراة ينظر بتعجب واستغراب لهذه الخطة التي فاجأتهم وأربكت الجمهور والحكم والفريقين ...

وفي التدريب كان الأتراب ينصتون ويحفظون ويقلدون ويستمعون بشغف إلي،وأنا أعطي لكل ضربة كرة اسما:

الآن سأعلمكم ضربة القفة، بعد أن علمتكم ضربة طائر العنقاء، وغدا سأعلمكم ضربة الفراعنة، وإن شاء الله لن ينتهي الأسبوع إلا وأنتم تتقنون ضربة الجاجة المتمردة

وبعد أن ينهاروا من الركض والدوران حول الملعب، كانوا يتحلقون حولي وأنا أشرح لهم كيف نضرب الكرة الطائرة، والكرة المتدحرجة، والكرة الملتفة، ولم أكن أعرف الفروق بين هذه الضربات التي تكاثرت على لساني تسميات وحركات لا أساس لها..،

- يا محمد، ألم تقل لنا إن هذه ضربة القفة

- نعم!

- طيب ليش قلتلنا عنها هسع إنها ضربة الأسد المتمرد؟!

- هاه هاه هاه! لا يفرق بين ضربة القفة وضربة الأسد المتمرد إلا اللاعب الخبير،الفرق باللمسة الأخيرة للكرة، والزاوية التي تضرب بها الكرة، افهمت؟

وهو ينظر بدهشة للفرق بين الضربتين: آه فهمت!

أنا الذي تطوعت لحفر القبر في ذلك اليوم الماطر، وعندما سألوني هل تعرف كيف تحفر قبرا، قلت لهم بثقة وثبات: شو هي صنعة صاروخ؟!

وتطوع مجموعة من الأتراب لمساعدتي، وتحت وابل من المطر انتقينا مكانا يتسع لشيخ في التسعين، وبدأنا الحفر، اقترحت عليهم أن يكون القبر" مدورا" لأن أبا سعد كان دائما متكورا على عكازه، فحفرناه مدورا، ولما رأيت أن القبور كلها مستطيلة، قلت لهم: سيكون هذا القبر مخالفا للنظام فلنحفره مستطيلا كبقية القبور، فعدلوه بلا تذمر، وهم يحملون علامات الحزن في عيونهم وعلى أجسادهم التعبة، كانت الريح العاتية والأمطار الغزيرة كافية ليسرِّعوا من عملهم، وليضاعفوا من جهدهم.

وحين رأى رجال القرية القبر، بهتوا وصدموا ونظروا إلى محمد، الذي قاد عملية الحفر، بغضب وحقد، وشرعوا يحفرون مع شمس تتأهب للمغيب

- قلت لي احفر فحفرت قبرا واسعا يتسع لثلاثة منكم

- وليش اتجاه القبر معاكس؟!

- كيف لي أن أعرف أن للقبور وجهة؟!

المجلة

قال المعلم: لا ضير من بعض المراجعات وطرح بعض الأفكار لتبقى المجلة وقادة.

أعلن الطلاب النفير فمجلة الحائط هي أهم ملمح من ملامح الصف يزينونها بكل ما يبهر ويشع ويلمع، تكتب موضوعاتها بخط يد عزام سماره. وأما جمع المعلومات وتنظيمها حسب الموضوع فكانت من مهمة اللجنة العلمية: السماعنة، وماهر عبده، ونبيل صبور، وطارق سلوم،...ومع ذلك كان مربي الصف يحرص على أن يقرأ كل موضوع وبخاصة الموضوعات التي لها تماس مع السياسة، وكان كثيرا ما يقول لي:" يا محمد لا تحكي بالسياسة من شان الله". كان طلاب المدرسة يمرون من أمام مجلات الحائط مرور الكرام، ويشيرون بأصابعهم إلى ألوانها وصورها بابتسامات لم أعرف لليوم كنهها...

البشمة

أم شديد، وهي تلقي بطفل باك في حضن أمه: ابنك يا حبيبتي ما به شيء، هو مبشوم!

- إي، والله من الصبح هجم على التينة، وما نزل عنها حتى هجم عليه الصمل والدبابير

- يا دكتور، عمرك انبشمت؟

تأتأت وفأفأت ثم استدركت، ثم أجبت بالنفي.

فقالت لي: يا لعين الحرسة، ما في واحد في الكون إلا أصابته البشمة وأصابه الإمساك، حتى لو ما سببهما لك الطعام ستسببهما لك المشكلات النفسية والاجتماعية والروحية والسياسية والاقتصادية...

ولمن لا يعرف الفعل بشم أقول:

انبشم المواطن فهو منبشم، ولعل الفعل بشم مرتبط بأكلة على الريق تبشم، وهي علاقة تفاعلية تفاضلية انعكاسية مع الفعل أمسك الذي جذره مسك الناتج هو الآخر عن أكلة سببت الإمساك، وكم هي المصيبة كبيرة حين يصاب المواطن بهذين العارضين المتعاكسين المتشاكلين المتشاقلين! وكم هو مسكين ذلك المواطن إذا عرف أن سبب هذين العارضين قد يكون معنويا أي أن يكون مرتبطا بالحالة النفسية والذهنية...

جلسات بالأبيض والأسود

قال لهم: لعلكم تذكرون تلك الساعة، الساعة السادسة مساء من طلعة قمر السابع والعشرين من شهر آذار، حين كانت العيون كلها تسأل أبا خالد عن الوقت، وتنتظر بشغف أن تشير ساعته الجوفيل المطلية بالذهب إلى الثامنة مساء، ليلتئم مجلسها في بيت أبي هرواة، وكان أبو خالد يشعر بالفخر لأنه وحده من يحمل عبء إعلام أهل الحارة بموعد الأخبار، كانت العيون والأيدي الملتفة حول التلفاز ذي اللونين الخالدين الأبيض والأسود تترقب نشرة الأخبار بقلق وشغف وكثير من الشتائم الموجهة بحذر واتساع محمولة على أنفاس يسكنها الحزن من التهجير وترك أول منزل يألفه الفتى في فلسطين

لا يوافق أحد أبا محمود على أنه أول من أحضر التلفاز ذا اللونين وأدخله في ذكريات الحارة إلا أنا، وإن كنت غير واثق من ذلك لأن محبتي له ولمجالسه ولحسن ضيافته يجعلني أوافقه على ذلك بلا تردد، وأظل أقول في كل جلسة: أبو هاني هو أول من أدخل التلفزيون إلى الحارة وليس أبو غرفان ولا أبو بسام ولا أبو عدنان..وكان ذلك يغيظهم و أولادهم ويجعل جلستهم على نمل، ولكنهم سرعان ما ينسون كلامي ليتابعوا أحداث ديكتاري والقردة شيتا،أو وهم

يتسمرون قلقا من مغامرات ستيف أوستن الرجل الآلي، أو يضجون فرحا وهو يتابعون لوريل وهاردي، أو المهابيل الثلاثة..

- ليش بحطوا اثمامهم على ثمام بعض!؟سأل أحد الصبية باستغراب وتعجب.

أبو هاني بابتسامة موحية: هذه قولة مرحبا عندهم، الأجانب تحيتهم غير يا عواد، كل شيء لهم عجب! ضحك الملتفون حول التلفاز وسمروا عيونهم على برنامج الغد ومواعيده

خرط

قال لهم: فرق كبير بين قولنا خرط ملوخية وقولنا خرط كوسا، فمع أن اللفظ واحد إلا أن الخرط مختلف لاختلاف الفعل وطريقته وأداته واتجاهه.

وليس قولنا إن فلانا خرّيط من باب خرط الكوسا، أو من باب خرط الملوخية، أو خرط البرسيم، وإنما هو من باب خرط الحروف وتفصيلها كما يشتهي السامع أو القارئ، أو كما يقول بعضهم يعمل في البحر مكاثي، ومن الحبة كبة، وهو ممن لا تفارق علبة البهارات جيبه أبداً.

وليست خرط من باب عرط؛ فالخرط مختلف عن العرط وإن كان الخريط والعريط يحصدان من بستان واحد هو بستان الخيال، وقد تنبه أبناء قريتي على الفرق بينهما، فكانوا يقولون جاء العريط وجاء الخريط، والعرط حياة تستحق الذكر والتوضيح، ولكن ليس في هذا النص؛ فهو مخصص للخرط والخراطين.

والخراطون في قريتي معروفون ومشهورون، وفي خرطهم قصص تروى وحكايات تحكى فلا يخلو مجلس من إشارة إليهم، أو من تلميح لقصة من قصصهم أو من حكاية من حكاياتهم أو"خراريفهم"، وكثيرا ما استكثر المتلقون تلك القصص واستكبروها واستهجنوها،

وأعلنوا عدم قدرتهم على تصديقها بنظرة إلى السقف، أو بإشارة مقص باليد، أو بقولهم: وجِّد الله يا زلمة! أو بصفرة طويلة باذخة، أو بنفخة منفجرة مستقيمة، أو بمسحة على الرأس، أو بلطمة على الخد، أو بالصدح بموال مفاجئ كما كانت تفعل أمي" غليون تشذب من كال غليون كلو من كيد النسا"

ولعل أشهر الخراطين في قريتي هو الشرشوح ابن حلوة بنت أبو الحيل الذي أشعل سيجارته من البرق، وأرشد بدخانها المقاومين إلى مراكز الاحتلال في القرية، وقفز من باب العلية قفزة اخترق بها باطن الأرض وخرج من جهتها الثانية...

ولا أبالغ إذا قلت إن أم شديد هي التي كشفت الخراطين في قريتي وفضحتهم، وجعلت من خرطاتهم نوادر، وألفت فيها أشعارا وأغنيات فأم شديد هي أول من كشف الخريط عبس بعد أن روى قصنه مع الذئب حين اختلط عليه الكلام بين الضبع والذئب، ولأنه قال في قصته إن الذئب خيَّره بين أمرين أحلاهما مر: الموت خنقا أو الموت عضا، وإنه بأظافره استطاع أن يقتلع كبد الذئب، وإن الذئب قبل أن يموت قال لعبس. ما شاء الله عليك! ما قابلت من بني البشر من هو أقوى منك!"

فقالت له: صادق يا البعيد!

ومن قصص الخراطين قصة عربوش أبي بيجامة حمرا، فعن أمي عن أبي عن أبي سطوف الفران أن عربوشا قال: " كنت أسير بين الكروم في ليلة ما فيها قمر، وكانت الريح تصفق وجهي صفقا وتدفعني دفعا وتسحبني سحبا، وكنت إذا تقدمت خطوة أرجعتي خطوتين، وظلت تسحبني وتجرني حتى أدخلتني مغارة الأموات، وهناك استقبلني الجني حاكم المغارة وزوجته، ولما عرفا بحالي أحسنا استقبالي، وقالا لي: يا عربوش لأنك أول واحد فات عل المغارة رح نحقق لك ثلاث أمنيات، فاطلب وتمنى، ففكرت وفكرت ثم طلبت وتمنيت عليهما أن يعطياني البيجامتين اللتين استقبلاني بهما، وها أنا ألبس بيجامة حاكم المغارة وزوجتي تلبس بيجامة زوجته.

كان عربوش يتباهى كثيرا بتلك البيجامة الحمراء، فقد كان يلبسها في الأعراس والأعياد والمناسبات، بل إنها كانت لا تفارق جسده، فكان ينام بها ويأكل ويصلي ويستقبل ويزور، فهي كما كان يقول غسيل ولبس.

ومن الخراطين الذين كان يشار إليهم بالبنان في قريتي طز مرحبا، وهذا كان لقبه، وأما اسمه فهو طزعة، فعن أبي عن عمي عن الحراث أبي خليل أن طز مرحبا قال: الغيوم تسمع وترى وتتكلم وتتألم، وهي تخاف وتهرب مثلما يخاف البشر ويهربون،...كان القمر

بدرا، وأصوات الذئاب تملأ الحواكير والوديان، والغيوم التي تغطي القرية تنظر إلي بغضب، وتحاول ابتلاعي وابتلاع حماري فلجأت إلى أشجار سرو أبي محمود، وصعدت أعلى شجرة، وانتظرت حتى اقتربت تلك الغيوم من متناول يدي فضربتها بعصاي ضربة جعلتها ترعد وتبرق من الألم، وضربتها أخرى فانهمرت دموعها من الوجع مطرا غزيرا قويا كاد أن يغرق القرية، فضربتها ثالثة فتجمدت وولت هاربة وهي تنظر خلفها خوفا من ضرباتي. وبعد أسبوع مرت الغيوم من فوق داري فخرجت بسرعة كي أدفع عن قريتي أذاها، فلما رأتني متوشحا عصاي سلمت وقالت مرحبا فقلت لها بغضب، وبنبرة تهديد: طز مرحبا!

والخراطون أنواع وأشكال، ولكل واحد منهم اختصاصه ومجاله الخرطي، وأسلوبه ولغته وشخصيته التي جد في رسمها وتعب واجتهد، فأبواب الخرط كثيرة وعالية وواسعة، ولعل أكثرها اتساعا باب البطولة، فإن أكثر من كانوا يتحدثون في مضافة المختار لهم قصص وحكايات عن لقاءات وحوارات وخطابات ومعارك مدهشة عجيبة يختلط فيها العرط بالخرط، ومن ذلك ما رواه أبي عن المختار دقدق، وهو معلم الخرط والعرط في قريتي، أنه قال:

"في سنة النكسة كانت السحالي والأفاعي تقاتل إلى جانب الاحتلال، فتذخر لهم بواريدهم، وإن جنود الاحتلال يدهنون أنفسهم بدم الحرذون قبل المعركة، ولذلك يظل الحرذون يدعو لهم على الصخر، وأن الطيور غنت صلِ صلاتك يا حرذون أمك وأبوك عنا هون..."

المتسحسل

قلت لهم: عربايةالسكوتر التي صنعتها ذات يوم ليلكي كادت أن تودي بي إلى التهلكة، ولم أستطع منع أبي من ضربها بالأرض وتكسيرها وتقطيعها ونثر أجزائها في شارع الحارة التي امتلأت بالعيون والحروف المتعاطفة، ولم أشعر بالوجع الحقيقي إلا حين رأيت عجلات البيليا تركض أمامي ليلتقطها بعض السيارة وأطفال الحارة...لم أفعل شيئا يستوجب كل هذا الغضب الذي استوطن عيني أبي وتراقص في يديه ضربا وتكسيرا، فأنا خرجت سالما معافى من بين جسد الشاحنة المرسيدس التي صادف مرورها عند تقاطع شارع المطحنة التي تنتصب بشموخ على طرف مرتبك من جسر الجبل الأبيض العثماني،كانت العربايةسريعة جدا تجرجر خلفها صوت عجلات البيليا، فنزول الجبل الأبيض حاد غير متعرج، متقن التزفيت.

كلهم قالوا لأبي: الله ستره، مر من تحت عجلات الشاحنة كالرصاصة وظلت العربايةتطير به حتى ألقته في الماء تحت الجسر.

ولم أستسلم فأنا والسحسلة كنا أخيَّين أرضعا بلبان، ولم يطل الأمر فقد اكتشفت أن البلاط المدهون بالصابون له سرعة عربايةالسكوتر، ومن خلف نادي الضباط حيث كان الردم العسكري يمتلئ بالبلاط وبلاط الفسيفساء أحضرت بلاطتين فيهما ملامح الجن، ومن

الحمَّام سرقت (فلقة) صابون ودهنت بها البلاطتين، وعلى رأس الطلعة طلعة الجبل الأبيض جلست عليهما وأرخيت للبلاطتين العنان، فطارتا بي كأنهما بساط الريح، ولا أذكر بعدها كيف أوصلتاني للمشفى...قالوا لأبي هذا القرد كان كالريح حين اصطدم بجدار البيت...

ولم أستسلم فقد رأيت أبناء الحارة يمتطون (جلن البلاستك) ويحلقون به في انحناءات الجبال وسفوحها، وفي نزلة الكسارة. ولم أجد صعوبة في الحصول على جلن فقد كان أمام عيني منذ زمن وأنا أمر من عند مطحنة الشرايط التي تعانق شارع أبي قاعود..

وركبت الجلن...

المتعربش

قلت لهم: تعربش يتعربش فهو متعربش، وأنا المتعربش، ولا شك عندي أنكم تعرفون هذا الفعل، وعشتم بعض لحظاته. وأما أنا فقد عشت لحظاته كلها، فقد كانت عادة عند أطفال حارتي أن يتعربشوا بكل سيارة تدخل الحارة، وزف من فيها كما يزف العروس، وكم حاولت تقليدهم، ولكنني لم أفلح بتعربش حافلة تذكر وتحمد، فأنا لم أتعربش إلا ببكم بائع الخضار، وبعربة بائع الكاز التي يجرها حمار أحور أحول، وبسيارة القمامة، والمرة الوحيدة التي تعربشت فيها بسيارة ال(كراش) أودت بسنيّ، وعرضتني لضربات موجعة من قايش أبي. أما هذه المرة فإن حافلة بيع الكرشات والروس تسير كالسلحفاة أمامي بمشية مغرية للتعربش وإرضاء النفس المتعربشة، وإثبات الذات عند المتعربشين، كانت حافلة بيع الكرشات تخطر أمامي بأناة ورقة، وكأنها تقول هيا هيا، فركضت وأمسكت باليد الحديدية التي كانت تناديني، وبها التصقت، ولكن الحافلة التي كانت تخطر كسلحفاة زادت سرعتها فلم أتمكن من النزول أو حتى القفز عند أول الطلعة كما هو معروف ومتداول ومتفق عليه بين أطفال الحارة، فقد ظلت سيارة الكرشات سادرة في تيهها، فنزلت من جانب مصنع البوظة ومصنع الخمرة باتجاه أشجار السرو العالية الضخمة التي كانت تتوسط شارع ياجوز وظلت تسير إلى حيث لا أدري، وتسرع بلا توقف وأنا في حيص بيص بين خوف وقلق وارتباك وبراءة طفل

ضاع متعربشا، ولكن أسئلة ثلاثة ظلت تسير والأرصفة تلاحق الحافلة وتتمسك باليد الحديدية محاولة نزع يديّ عنها: سؤال أبي المعتاد المرافق للقايش عن متى سأكف عن خلق المشكلات، وسؤال أولاد الحارة عن المكان الذي وصلت إليه، ولا شك عندي أنني حطمت الرقم القياسي،وسؤال أين ستتوقف هذه الحافلة المليئة بالكرشات والروائح التي تعذبني كسجان، وكنت كلما حاولت أو هممت بالقفز تمنعني رجفة خوف وإطلالة مرعبة على الموت..

وعند أكواخ من الزينكو وبيوت كثيرة متراصة بنيت على عجل من الطوب والزينكو ألقت الحافلة رحالها، فقفز المتعربش كالسهم ليتنفس عبير الثرى ويتمسك بيد التراب، ويحتضن الأرض بجسده المنهك ويسبّح باسم الذي حمل طفلا لم يتجاوز السابعة من الزرقاء إلى مخيم حطين متعربشا

وابتدأت رحلة العودة مشيا على الأقدام التائهة معتمدة على نظرات متناقضة كثيرة من الشفقة والتعاطف والغضب والسخرية، وعلى إشارات فموية ورأسية، وأصابع مرتخية، وأصابع صارمة، وعيون مبحلقة مستغربة رسمت خارطة العودة، وعدت لأجد في استقبالي من أعرف ومن لا أعرف، وعلى رأسهم كان أبي يحمل قايشه وأسئلته...

الصياد

وقلت لهم: تلك الفخاخ المبعثرة في غرفتي بعشوائية موحية، وأدوات الصيد المعلقة بحرص على جدرانها، وتلك الرؤوس المحنطة المتمددة على أرضيتها بأناة ودفء، وتلك المقاليع والنقيفات المتقنة الصنع التي تملأ خوابي بيتي الطيني، والبندقية الطويلة التي تنتصب إلى جانب زير الماء الذي يقاسم الباب الهواء والإطلالة على الدجاجات المتقافزة والباحثة بشغف وحب عن طعامها، لكل هذه وتلك نادتني القرية يا صياد، فإن ذكر الصيد والصيادون في مجلس قالوا: محمد ملك الصيد، وحكوا عني حكايات صيد شتوية وصيفية ماتعة نافعة، ورووا عني روايات كلها صيد وقنص ومغامرة وهش ونش...

قالوا: محمد صاد ذئبا، ثم قالوا صاد أسدا، وأما الأرانب التي صادها فتكفي لإطعام أهل نابلس كلهم، وأما عن صيده للشنار فحدث وقل ما شاء الله، محمد صياد بالفطرة مرزوق، تأتيه الطرائد حبوا وزحفا وركضا مختارة طائعة.. رميه لا يخيب فالله معه، ويقولون عن محمد إنه يستطيع إصابة الهدف الملتف والطائر والراكض والغائص والنازل والطالع والهابط والصاعد والمحلق والحائم...

ووحده المختار الذي يعرف لم كنت أنظر إليه نظرة ضبابية عندما ينادونه بالبطل، ويعرف سعد وأبوه لم كنت ابتسم عندما

ينادونه بالكاتب، ووحده محمود يعرف لم كنت أضحك عندما يقولون له يا شيخ، ولكنني لم أكن أملك زمام نفسي حين ينادون خفير القرية بالبطل الشجاع ويا بطل الأبطال.

وأنا كنت الوحيد الذي يعرف سبب ذلك ولا أحد غيري فقد كنت أبتسم ابتسامة تقر بها عصافير روحي، ومع كل ما أحمل من اعتراضات صاخبة على تلك الألقاب إلا أنني كنت أحتفظ بها في ثنايا أضلعي

وأنا الآن أعترف لكم وحدكم أنني لم أحاول قنص أو صيد أي كائن حي، وكل ما في الأمر أني حملت بندقية أبي خالد وعن غير قصد لامست أصابعي الزناد فأصبت طاقية شيخنا المعلقة على حبل الغسيل، وحين أغلقت النافذة صباح ذلك اليوم حبست شنارة ضلت طريقها في غرفتي، وأما غير ذلك فهو تأليف وتشريف

ولا أنكر أنني كنت مولعا باستخدام المطاط لضرب أجساد أترابي بالورق الملفوف، أو بالأسلاك المعقوفة... وأن صناعة البنادق التي تطلق الأسلاك كانت لعبتي؛ فأنا من يختار الخشبة وطول المطاطة وتركيب الملقط، وأما صناعة المفجرة الصوتية بحفر الرصاصة وتثبيتها بخشبة وملئها بالكبريت، ووضع المسمار، وضربها بالأرض لإصدار الصوت المتفجر فكانت من ابتكاراتي التي سببت لي الكثير من

المشكلات وبخاصة مع النساء اللواتي كنت أفتن بمفاجأتهن وإرعابهن بصوتها، وكثيرا ما ركضن وصرخن وشتمن وشكونني

وأما الصيد فليس من اهتمامتي ولم أسعَ يوما إليه، ولا أذكر أنني فكرت فيه، أو خططت له، وحين فاجأني مختار القرية ذلك اليوم بطلبه مني أن أقتل لهم الضبع الذي هاجم ابنة خفير المطحنة وراعيا وحراثا، لم أستطع الرفض؛ كي لا أهدم حكايات الصيد التي بنوها عني

حملت كل ما يحمل وما لا يحمل، ولبست ما يوهم القوم بأن الصيد وجهتي، وأن الضبع طلبتي، ومشيت إلى الحقول، وعيون القوم تتابعني بزهو مبرق وفخر مشرق ودعاء مغدق، وكانت يد أمي بين تلك الأيدي الملوحة، ومع تلك العيون القلقة... لوحت لهم ومشيت. كنت أعرف في حقول قريتي أكثر من مكان للنوم والاختباء، وأنا نمت فيها كلها، وهناك قضيت يومي الأول في تلك الغرفة المنعزلة حيث لا تجرؤ الأقدام على الخطو، وهناك أكلت زوادتي وبعضاً من الجنى وانتظرت غروب الشمس لأتسلل إلى سطح عليتنا وأنام، وقبل أن تشرق الشمس ركضت إلى الحقول واختبأت حيث لا يراني إنس ولا جن، وبقيت في مكاني ساعات طويلة أراقب الشمس واهتزاز أوراق الشجر، وحركات الزواحف المرتجة المتعجلة، ولكن،وأنا في غمرة تفكري في

خلق الله الذي يتقافز أمامي، تسللت إلى قميصي الواسع أفعى جمدت أنفاسي، وتمشت قليلا فوق أطرافي الساكنة والنابضة، ثم انسحبت آخذة معها ما تبقى من ريقي وحروفي، فقمت راكضا مروعا تاركا خلفي كل ما أحمل وما حملت، وبارودتي بيدي تتراقص فرحا بانتفاضتي، أطلقت رصاصة أو رصاصتين، فاستيقظت القرية، فركضت إلي مستطلعة مستبشرة: خير شو صار معك قتلت الضبع؟

- صبتو في مقتل، لكنو هرب إلى القرية!

ضجت القرية وتنادت للقتل، وبدأت تفتش الأماكن كلها؛ الزرائب والحظائر والأقنان، والجحور، والخوابي والغرف، وانتشر الخوف من الضبع في ممرات القرية وبيوتها الطينية، وفي عيون نسائها وحقولها وبياراتها، وانتشر الرجال في أطراف القرية وبين حاراتها، وأوصدت الأبواب دون الأطفال، وتمشى الخوف بين الغرف والأحواش

ومشيت معهم أفتش عن ذلك الضبع الذي فر بدمه النازف إلى القرية...

المتدحرج

قال له: وأكوام أعواد الملوخية التي كنا نجمعها في حفرة واسعة مربعة كانت كافية لتخلق لنا يوما مليئا بالقفز والمصارعة؛ فقد كانت قادرة على تلقي أجسادنا المتقدة بالحياة وامتصاص ما فيها من خشونة وقسوة وهي تشتبك مع الفرح، وكانت قادرة على أن تحمل عن الأرض ما يثقل عليها من هذه الأجساد المتقافزة المتصارعة، فتلك الحفرة المعبأة بالملوخية هي عشنا الأثير الذي يحمل ذكريات استقت من خيالنا وبراءتنا وأحلامنا كثيرا مما لا يمكن نسيانه؛ فهي بيت الفرح الذي يستقبل أجسادنا بعد أن نرهقها بالقفز والنط والمباطحة والمصارعة وعليها بدأ مشروع بناء جدران حياتنا من الحجارة، كنا نبني ذلك البيت بصبر وثبات حتى إذا ما انتهينا من بنائه، وغطيناه بالكرتون والأغصان وسعف النخل جلسنا فيه في حلقات نورانية لنشرب الشاي من بين يدي نار يشهق الحطب فيها بالجمال والخير، ويوزع لهيبه بروية رومنسية بين الشاي وحبات البطاطا والبصل التي تتغطى دائما بالجمر ولظاه،

وقبل أن تغيب الشمس نكون قد جمعنا ما تيسر لنا من عجلات السيارات، كنا نحمل بعضها إلى رأس طلعة الجبل الأبيض ونطلق سراحها لتهاجم الناس والبيوت والسيارات. ونحمل بعضها إلى

الوادي لنشعل نارا حامية عالية وقودها العجلات المتنوعة وكل ما تستطيع النار أن تأكله. وكم كانت رقصات النار تمتعنا وتسعدنا وهي تستقبل ما نجمعه لها من وقود مختلف لونه ونوعه.

لكن الشياطين التي كانت تسكن طفولتي لم تكن تفوت هذه الفرص؛ فقد كانت تبحث في قاموسها عن كل ما يمتعها؛ فكم من مرة أجبرتني وأنا البريء على وضع العقارب في النار، وإلقاء كل ما يمكن أن ينفجر فيها، كعلب الدهان، وعلب المبيدات، والرصاص المذخر،والزجاج...ومع كل انفجار كان ضحكنا ينفجر فرحا مبتهجا. وكثيرا ما حملتني الشياطين على صنع قنابل الملتوف الكازية، وضرب البيت الملوخي العنكبوتي، أو إلقائها في الشارع.

أما ما تبقى من عجلات فكان للعب وأي لعب، فقد كانت لعبة أعدتها شياطين الإنس والجن وجدّوا في تحضير أدواتها...

لم يكن أحد يجرؤ على التكور داخل العجل مثلما كنت أنا أتكور، ولا أحد يستطيع أن يبقى متكورا داخل العجل المتدحرج إلا أنا؛ فقد كانت تلك لعبتي ومصدر تفوقي على أقراني

... وكان العجل ضخما أذكره، وأذكر كيف أنني لم أحتج للتكور داخله، وأنني وقفت في داخله قبل أن يتدحرج بي وأتدحرج داخله من رأس طلعة الجبل الأبيض.

أذكر الخطة أ فقد كانت محكمة؛ الدخول في العجل، وإطلاق العنان للعجل، وايقاف العجل. نعم كانت الخطة واضحة وبسيطة، ونفذ البند الأول منها بدقة، ونفذ البند الثاني برقة ودقة وبعيون مرتجفة. وأما البند الثالث من الخطة فقد داسه العجل المتدحرج الذي دحرجني معه إلى السيل حيث انتشلني المنتشلون من إحدى بركه العميقة وحملوني إلى مستشفى الحاووز جسدا بلا حراك...

لم يستطع جسدي المرتبط بعلاقات قوية مع الشيطنة المكوث في المشفى الصغير الذي يرتدي الأبيض، ففر هاربا يخطط ويبني ردودا مؤجلة على أسئلة كثيرة يعرفها، وأثناء سيره رأى عجلا ضخما يجلس بتباه على ناصية الشارع الخلفي للمشفى...

شديد: سمعتم آخر أخبار خاتمة؟

- لا والله، هاتي ما عندك!

- رفعت رأسها ويديها في وسط الحارة وصارت تصيح:ستموت يا حسن بقر، وأنا أعرف أنني لن أسامحك،سأبقى أدعو ربي أن يسحب منك كل ما تحب،ويحرمك من كل ما تشتهي،يا حسن بقر يا بن زرفرف.

إحدى الجارات بانفعال وحزن: يستأهل،فقد ظلمها،وكسر بخاطرها!

جارة وقد رفعت يدها بقسوة عاصرة: الله لا يسامحه،حسن بقر ابو راس الشايب العايب

أم شديد: لا، وفي واحدة من الجارات قالت لها: سامحيه يا خيتي يا خاتمة وانسي، وعيشي حياتك...

الجارات بصوت واحد: الله لا يسامحها ولا يسامحه...

وتابعت أم شديد حديثها عن خاتمة بمرارة وحسرة وغضب مستعينة بيديها وعينيها وما استطاعت من طرق إيصال وايحاء وتعبير:

خمسون عاما لم تكن كافية ليلتئم جرح قلب خاتمة التي يعرف حسن بقر أنه ظلمها وأكل حقها ليطعمه واحدا من عصابته، وهي في كل مجلس تدعو بهذه العبارات:

يا رب،أنت تعرف ما فعل حسن بقر، بي فخذ لي حقي منه في عمره وجسده.

وتقول كلما أجهدها الانتظار: الله يقصف عمرك يا حسن بقر الله يقصف عمرك يا بن زرفرف.

وتقول إذا داهمها الغضب رافعة عينيها ويديها للسماء: الهي وأنت جاهي ينتقم منك حسن بقر يا بن زرفرف!

وتتناقل الجارات "دعاوي" خاتمة بحب وشغف فما من واحدة منهن إلا وتحفظ دعاء لها، حتى إن "دعاويها" صارت كالأمثال، تستعين بها نساء الحارة في كل ما يعترض حياتهن.

فمن هذه الدعاوي:

يفرط كرارك، ويشعل نارك، ويشوفك الدكتور وما يعرف لك دوا يا ثور وتتناوب عليك المصايب من غير دور بلا إحم ولا دستور

روح الهي العين ترقعك، وعلى الأرض تلطعك، وتفتفك وتفقعك وما تجمعك، وتنادي وما حدا يسمعك.

روح، الهي توكل جنابك الفرشات، ويحاكموك عشر خوجات ما يفهموا شو ما لك، وما يعرفوا جوابك من سؤالك، وما يلقوا الك دوا، وتظلك تتوجع، وما يسمع صوتك غير الهوا! إلهي يخطفك عزرائيل، ويكبسك في البرميل، ويحطوك في جورة أولها شبر وآخرها شبر، وتظلك ليوم القيامة في القبر مع حية بسبع روس، ونار زرقا احمى من نار المجوس، روح يالبعيد الله لا يجيبك، ولا يدخلك عيد...

الصاروخ

وكم قلت لهم: أنا الذي يركب البسكليت، أنا سيد من يقود هذا الفليبس الكبير أبا عجلتين، فقد قدت في صغري واحدا ضخما بثلاث عجلات استأجره لي والدي في خان نابلس، فكيف لا أقود هذا البسكليت العالي!؟ كان ملعب جناعة كسوق عكاظ قبل أن تستولي عليه بلدية الزرقاء، ويصبح ملعب البلدية..ركبت البسكليت بقامتي القصيرة وجسدي النحيل بعد أن أمسكته لي مجموعة من المتبرعين وهم يتغامزون ويتشاورون في أمر هذا الفتى المجنون من يكون! وحركته بقدم تناوبُ قدما وأنا أتمايل على الجانبين حتى اصطدمت ببائع شعر البنات، الذي وقع على ثلاجة الأسكيمو الصغيرة فتكسرت، وتكسرت معها حبات الأسكيمو، فتناولتني الأيدي،وتعالت في وجهي الأصوات، وتجمع حولي بائعو الأسكيمو،وبائعو الترمس،وبائعو العصير، وبائعو البليلة وبائعو العنبر، وبائعون كثر لا أذكر ما كانوا يبيعون فقد كان الملعب في ذلك الوقت متخما بالناس، وبدأت التهديدات والصرخات واللطمات،وكل ما لا يخطر على بالكم من كلمات، فقررت الهروب مستعينا بسرعتي الصاروخية،وانتظرت الفرصة وتحينتها حتى حانت،فقد أطلقت قدمي للريح حين انشغل القوم بلم المنثور وتجميع المكسور، وركضت فجاوزت تأبط شرا

وعصابته من الصعاليك،وقد احتضنتني بساتين السيل وأشجاره الكثيفة وخبأتني بعد أن ألقت علي من خيراتها ما استفز أصحاب البساتين فنهروني. وأطلقوا خلفي كلاب الحراسة التي طاردتني بجد وإخلاص، ولكن هيهات هيهات!فقد كنتُ في حالة من الخوف والقلق مكنتني من مصاحبة الريح، ولم تهدأ قدماي حتى رأيت أمي عند مطحنة الشرايط تنتظر دورها، هي ومجموعة من نساء الجبل الأبيض..فلذت بها ولجأت إليها بقلب كالطبل وأنفاس كبخار محبوس لإبريق يغلي على النار..

المتشائل

قال لي: عجينة العروس التي لم تلتصق بالجدار أثارت لغطاً، وحرَّكت ثرثرات كثيرة في حارتي، بنوا أسباب وقوع العروسين عن اللوج؛ الكرسيين الخشبيين والطاولة العريضة المتينة، التي تتباهى أم شديد وتفاخر بأنها تملكها، وبأن نساء الحي كلهن صُمدن فوقها.

قالت أمي: بسبب سقوط العجينة المرصعة بورقة العنب تطلقت عفاف في شهرها الأول، فسقوط الورقة فال سيء، وعلامة شؤم، فكل من سقطت عجينتهن لم يعشن حياة زوجية سعيدة، بعضهن مات أزواجهن، وبعضهن صار لهن "ضرايـر" وبعضهن ما زلن يعشن جحيم حياة زوجية بصبر وخوف وقلق...

قالت جارة بارتباك وخوف وكأنها من تلك النساء اللواتي سقطت عجينتهن: مش معقول هذا الكلام، الدين ما بيقول هيك!

أمي بنظرة مؤنبة مؤدبة معاتبة مهددة: مش مصدقة؟ روحي إسألي نسوان الحارة!....

قالت جارة بابتسامة ليمونية ماكرة: يبدو أن العجينة التي ألصقها اللي ما يتسموش على أبواب قصورهم من آقو وليست من طحين...!

المغنّي

قلت لها: سأغني أنا أغنياتي فالغناء زوادة الغريب، وأما أغنيات أولاد حارتي فلا يعرف مصدرها أحد، فحين كنا صغارا لم نكن نسأل وإنما كنا نغني ونركض ونضحك، فلا أحد يعرف من أول من غنى:

" بيبوح يا بيبوح، قلب العرب مجروح، أمو وراه بتنوح، بتقول يا ولدي، يا صاحب الزندي، جبلي معك بقرة، بقرة حلابه، تحلب وتسقيني، والرب يعطيني، يعطيني طير اخضر، يمشي ويتمختر.."؟

ولا يعرف أحد من أول من غنى الأغنية الحوارية:

- جمّال ابن جمّال، العرب سرقوا لك جمالك!

- سيفي تحت راسي ما بسمع كلامك!

ولا يعرف أحد مصادر تلك الأغنيات، ولكنني أعرف أن لها أثرا عميقا في النفس امتد حتى صار رفيقي في كتاباتي الروائية والقصصية، ومواقفي السياسية؛ فعلى وقع هذه الأغنيات نمت أنامل ذوقي وأبنية ثقافتي، وحساسية واعيي؛ فقد كانت الأغنيات مساندة للمربين تدعو للفضيلة، وتسند الروح بالكلام الغزلي العفيف الذي لا يخدش الحياء، فهذا المفطر في رمضان يواجه بسيل جارف من أصواتنا ونحن نغني له:

" يا مفطر رمضان، يا عايف دينك، قطتنا السمراء، تقطّع مصرينك، يا مفطر رمضان الله حطوا عليه حجار الله، حطوا عليه الحريسه خلوا عظاموا هريسه "

وفي ليلة العيد تركض ممرات الحارة بنا ونحن نغني:

بكره العيد وبنعيد ونذبح بقرة اسعيد، واسعيد ما لو بقرة، بنذبح بنتو هالشقرا، والشقرا ما فيها دم نذبح بنتو وبنت العم...هكذا كنت أغنيها أنا وأصرع بها الجيران بصوتي الجهوري وصياحي الحاد.

ولعل العمر قد تآمر مع ذاكرتي عليَّ فلم يعد معي من تلك الأغنيات إلا بعضها وكثير من وشوشات آثارها، وكم تمنيت لو أن واحدا من أترابي ساعدني على تذكر ما ضاع مني منها!

اقصد

قلت لهم: كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا حين "تعربشتُ" بباب "الباص" الذاهب إلى عمان، وبصعوبة بالغة "دحشت" جسدي النحيل الضئيل بين الأجساد المتمايلة المهتزة التي تمسّكت بما استطاعت من الباص وبمن فيه؛ بالكراسي، وبالمواسير الممتدة على سقف الباص، وبأكتاف الجالسين، وبرؤوسهم.

كان طريق الباص هو الطريق القديم الذي يمتد من الزرقاء إلى الرصيفة عابرا البساتين الخضراء الممتدة الواسعة، على جانبي نهر الزرقاء المزنر بالينابيع العذبة الكثيرة، ومارا بين أشجار السرو الضخمة العالية حتى يصل ماركا، ثم ينزل إلى المحطة، ويتجاوز السكة الحديدية والمدرج الروماني ليُنزل ما تبقى منك في المجمع القديم قرب المدرج الروماني، ولكن قبل أن تصل عليك أن تهتز آلاف المرات؛ فمع كل كلمة "اقصد" ومع كل عبارة "على مهلك" سيخضُّك الباص خضةً قوية، وكم هو محظوظ ذلك الجالس على الكرسي الجلدي الأصفر إذا لم يأمره الكنترول بالوقوف. وإن لم يتطوع هو لتجلس صبية، أو شيخ، أو من يراه الكنترول أحق بالجلوس منك فهو صاحب السلطة!

كان الباص المسترشد بأوامر الكنترول كسوق شعبي؛ ففي الممرات تتراكم سلال مليئة بالبيض والحمام والبط والدجاج والأرانب والأوز، ونساء ورجال لبسوا ما حلا وزان وتأنقوا وترفقوا في اختيار ما لبسوا، إلى جانب مجموعة من الذين لبسوا ملابس العمل بما لها وما عليها. وفي المقاعد وبين الواقفين كان بعض المتأنقين يحاولون قراءة الجرائد، وآخرون لم يمنعهم تزاحم الأجساد من تدخين الريم، والجولد ستار، والكمال.

الباص الذي حملني إلى عمان، ومشى على صوت "اقصد" قضى يوما أو نصف يوم في الطريق حتى إنني دفعت للكنترول الأجرة مرتين؛ فقد غفوت وصحوت، ثم غفوت ثم صحوت على صوته وهو يلم الأجرة في ماركا فدفعت مرة أخرى وعلى صوت أم كلثوم الذي امتزج بارتجاجات محرك الباص...تطول المسافة بين عمان والزرقاء للذين يركبون باصات اقصد ولكنك دائما تصل عمان، وأن تصل متأخرا خير من ألا تصل...فاقصد

"حط أمك في الطنجرة "

قلت لهم: لم تستطع أم شديد حبس قهقهة تجمعت عند نواجذها! فكيف تحبسها وقد سمعت حفيدها عارفا يغني"حط أمك بالطنجرة واطبخ عليها مجدره"أمك... بالليل يا عيني بالليل

لعلها وجدت فيها ما" يفش الغل " من هذا الذي تجمع في صدرها من غضب على التي سرقت ابنها وجعلته كالخاتم في إصبعها

وكانت كلما مر عارف من قربها نادته، وطلبت منه أن يغنِّي للجارات أغنيتها المفضلة لتضحك وتُضحك الجارات، ويأخذ هو ما خبأته له جدته من كل ما هو لذيذ وطيب وزاكٍ!

ولكن ضحكة أم شديد الجدة خبت وانطفأت عندما سمعت وشوشة إحدى الجارات تقول: كلو قرضة ودين، ومطرح ما دفن إمه رح يدفنوه..؟!

همسات عتبات

قلت لها قصة ذلك الفتى عابس الذي انتشرت صورته على صفحات الجرائد بوجهه المنقوع بالجروح والقروح وقد لبس وشاح القلق والخوف والارتباك ما زالت حديث الجدات...قالوا سكر ومات، وقالوا غرق في نهر الأردن الذي جرفه في دوامة من دواماته، وقالوا بلعته الغول، وقالوا أكله الضبع، وقالوا سحبته الأرض إلى حضنها، وقالوا هو في سجن عسقلان، وقالوا بل هو في سجن بئر السبع، وقالوا هو في سجن نفحة، ووزعوه على سجون العدو الكثيرة، وقالوا وقالوا، ولكنهم ما انتبهوا على ذلك الشيخ الذي افترش التراب على باب بيت من صفيح وانتظار...

همسات عتبات

قلت لهم: لعل أم شديد لم تنم منذ أخبرها أبو شديد عن عزم ترامب إلغاء حقها بالعودة لقريتها الطنطورة، وأنه أعطى القدس لليهود، فقد انتظرت الصباح على نار متأججة وهي تمسك عتبة الدار بأنفاس غاضبة، وقفت على عتبة الدار وفي عينيها نيران وبراكين، ولعلها لذلك لم تسمع نداء أم سالم، ولا رأت أم محمود وهي تلوح لها بيديها؛ فقد كانت عيناها تراقبان المارة بانتظار الدكتور لتشكو له ترامب. وما إن رأتني حتى قفزت من مكانها، وأمسكت قميصي، وشدَّتني بقوة وهي تقول:صحيح ما سمعته، هل ترامب هذا يستطيع إلغاء حلمي بالعودة إلى الطنطورة، هل يستطيع هو أو غيره أن يلغي المسجد الأقصى من نصوص الحالمين وشوق الغائبين وحسرة المهجّرين، هل يستطيع ترامب هذا أن يمنعني من زراعة حلم العودة في عقول أولادي وأحفادي...؟

- يعني يا دكتور، في هذا العصر إذا كان معك صواريخ ودبابات تستطيع أن تعطي وتهدي من تشاء ما تشاء؟ روح قوللو يا دكتور، قل له إنو أم شديد ما زالت تحمل مفتاح بيتها في الطنطوره

طقوس

قلت لها: كان الهواء قاتما في حارتي، ويرتفع علم الحزن فيها على نظرات الجيران وحركاتهم، حتى إن التلفاز في ذلك اليوم لم يكن فرحا كعادته عندما يعرض لنا توم وجيري، ولم يستطع المهابيل الثلاث أن يسرقوا من بساتين روحي نسمة دافئة، فمن مات هو صديقي الذي كنت أقرأ قصائدي أمام عينيه الحالمتين الباسمتين..

قال أبي: في قريتي كان للموت إطلالته وطقوسه وعلاماته التي تغطي الحارة كلها؛ فبعد موت قريب أو جار، تبدأ القرية مرحلة الحداد والحزن أربعين يوميا وإيقاف وإغلاق كل ما يتصل بالفرح، وأشار إلى التلفاز، أو بعلاماته الظاهرة أو الباطنة وتأجيلها حتى يعطي الآباء الإيعاز للأمهات أن الحزن انتهى0

فأغلقت التلفاز، وظللت بانتظار من يقول لي إن الموت انتهى من جولته في حينا

قال أبي: وفي أيام الحزن تلك كانت تتوقف الأعراس عن غنائها، وتسكت المواويل التي كان الأطفال يغنونها في شوارع القرية، ويلبس أهل القرية كلهم عباءة الحزن على وجوههم، وبين حروفهم وأدعيتهم...

صبرت يوما أو يومين ثم استسلمت لمفتاح التلفاز

المشعوذ

وقلت لهم:"أعرف أن (الطشَّ) رجل لم يلتق أيَّاً منكم، مع أنه كان حاضرا حين ولدتكم أمهاتكم، وهو الذي يمنع أبا رجل مسلوخة من أكلكم، أو إطعامكم لوحوشه المفترسة الجائعة، التي تملأ ساحات القرية في الليالي التي يغيب فيها القمر، وأعرف أنكم لم تتعرفوا يوما إلى أبي رجل مسلوخة الذي يستغل فرصة خروجكم في الليالي ليلتهمكم ويفصفص عظامكم " ثم نظرت أمي إلى وجوهنا فعرفت أن جميع من في الغرفة الطينية قد انكمش تحت اللحاف من الخوف إلا الصبي النحيل محمد، وهي تعرف صعوبة إدخال الرعب إلى قلبه:

"ولك بدكش تنام، ولك نام ولك، نامك سَكَر، وتخبط عليك البقر ما يظل منك أثر.

تلفع الصبي الصغير باللحاف حتى هدأت أنفاس الأصوات في الغرفة، ثم تسلل إلى العلية، ليشعل ما استطاع من شموع وعيدان، ويبدأ بقراءة كلمات من كتاب استحضار الجن كتبه هو بخط يده، وصار يتمتم ويتمتم.وصدف أن هبت ريح قوية في تلك الليلة الباردة الماطرة ففتحت النافذة المطلة على بساتين القرية وحقولها وأطفأت الشموع، فظن ذلك الصبي أن الجن قد حضر واستجاب له، ولبى دعوته، فصار يرحب ويهلي، ويزيد في الترحيب، وتذكر كل ما قيل له

عن الجن، " إن حضر إليك وأطل عليك صفق له واصفر صفرتين طويلتين، وانهق نهقتين طويلتين، ثم انبح نبحتين طويلتين، ثم سلم عليه وأنت تبصق وتضرب بقدميك الأرض،" فصار الصبي النحيل يصفق ويصفر وينبح حتى أيقظ صوته النائمين في البيت الترابي فركضوا إليه فوجدوه يصفق ويرقص، فانهال عليه والده بالضرب، فقفز من نافذة العلية إلى الحقول، وظل يركض حتى وصل زريبة الشواويش، فتسلل إليها، وهناك ألقى رحاله وهو يفكر بما سيفعله صباح الغد وما سيقوله..

المتشعبط

وقلت لهم: لم تكن تلك المرة الأولى التي أتسلق فيها سور مدرسة بنات القرية لأراقب الطالبات اليافعات وهن يلعبن ويغنين، ولكنها المرة الأولى التي يقبض علي فيها بالجرم المشهود، لأنال ما ينال كل (متعربش)متلصص.

أنا لم أكن أهرب من المدرسة، وإنما كنت أستغل الفرصة بين الحصص، والمشاوير الكثيرة التي يكلفنيها المعلمون لإحضار أشياء متنوعة لهم، كنت مربوطا بحركة تلك الفتاة السمراء ذات ذنبة الفرس، التي كنت أخشى كثيرا أن تعرف بحبي لها، وكنت أخشى كثيرا أن يعرف أحد عن حبي لها، حتى إنني إذا مررت بالقرب من بيتها جعلت طرف عيني غيرها لكي يحسب القوم أن الهوى حيث أنظر.

سألتني المديرة الطويلة الصارمة وهي تحمل بيدها عصا أذكرها: شو كنت تعمل ولك فوء سور المدرسة؟!

قلت ببراءة: كنت أراقب البنات وهن يلعب ويغنين!

المديرة وهي تضرب العصا بيدها بحركة تهديدية متقنة: هات أسمعني ما سمعت، وصف لي ما رأيت؟

قلت ببراءة: أنا ما سمعت، وما رأيت، ولست أذكر كيف تسلقت هذه الحائط السور!

يرتفع صوت الطالبات بقوة، وكأنهن يعرفن بوجودي:

يا مدارس يا مدارس شو أكلنا ملبس خالص، والملبس بالكباية، أشكرك يا معلمتنا عَ نظافة مدرستنا مدرستنا حلوة خالص...

ثم يتغير الصوت: حطوا البابور علبابور، أجا خالي من اسطنبول، حاكاني حكي تركي خلى عويناتي تبكي، أكْل الحصرم يا عيوني، شو ما أكلتو طعموني؟ أكلنا كنافة مئلوبة انشالله تطلع محروأة على راس اليهودِ، واليهود كلابنا دأوا على بوابنا مثل الشحادين، واليهود سكرانه عشان حبة رمانه

تنظر المديرة إلي هذا الطفل النحيل الذي لا يلتفت إلى عصاها، وينخرط بأغنيات الطالبات وإيقاع أصواتهن المزركش بالأنوثة فتثور غضبا: هلا رح أفرجيك كيف تتشعبط على سور المدرسة.

فيرتفع صوت الطالبات مرة أخرى، ويجرني إليه بفرح وحب وسرور:

شبرة أمرة شمس نجوم وردة حليب إيما، ثم ينقطع الصوت

أووومي ياست سماح، أووومي، اومي نأي وردة "

ثم ينقطع الصوت، أو تشتبك به أصوات الباعة المتجولين: بائع العكوب، وبائع الملوخية، وبائع شعر البنات، وبائع الإيما، وبائع العنبر الذي ما زالت كلماته أنشودة الذكريات

"العنبر يا اولاد

ويرتفع صوت الطالبات الفرحات:

"الدنيا برد الدنيا برد ست سماح بتأطف ورد..."

وكقط محشور ركضت وركضت غير مصدق أن المديرة التي لوحت كثيرا بالعصا لم تضربني، ولم تشتمني، ولم تعقابني، ولم تتصل بأبي، ولا حتى بمدير مدرستي.

أذكر أنها ضحكت حين قلت لها إنني جئت لأسمع أغنيات البنات، وقالت مهددة ضاحكة: أنألع، يالله! أوعك تعيدها!...

سوالف طرمة

شوال البصل الذي يقف الآن منتصب الهامة مزهوا بنفسه معتدا بها يحاول أن يخرج من شيئيته ليحكي للحارة كلها عدد الأعين التي رمقته، وعدد الرجال والنساء الذين أوصوا أبا شديد به خيرا

"كلهم يفضلونني أنا،أنا شوال البصل، على ليفة الحمام التي تباع في المحلات لأنني أرتبط بالبصل وما له وما به من فوائد، ثم إنني مجاني، لا يتطلب الحصول عليّ سوى توصية حارة لأبي شديد مع رجاء صادق.

نادت أم شديد أبا شديد قبل أن ينهي إنزال سيارة الخضار والفواكه، وقالت بصوت قد ابتلع شيئا من الهمس والوشوشات، وامتلأ بكثير من إيماءات الإقناع: لا تنس! ليفتنا اهترأت، لا (تعطي) شوالات البصل لكل من هب ودب! وشدت أسنانها على العين. هز أبو شديد رأسه موافقا، وعاد لإنزال ما تبقى من بكس وشوالات وهو يغني:

يا ظريف الطول ميّل لعنا صارلك ست شهور ما بتسأل عنا

وحنا في قربك وفي بعدك عنا مثل شوال البصل،تقبرني أنا

تضحك النسوة بترف، وينثرن همسات كثيرة مغموسة بالرضا، ويمعنَّ في انتقاء ما يردن وهنَّ يكركرن التفاتاتهن بود وحب ورضا، ويمسحن بعيون حتى اصطدمن بلافتة تقول "شوال البصل الفارغ بنصف دينار"

همسات فوق العتبات

قالت لي تعال يا دكتور، تعال، سأحكي قصة هذا العصر، حذاء المختار، جاع الناس فضاع حذاء المختار فاضطرب الحقل، وهاج الناس وماجوا فوق الأرض على الطرقات، بحثوا في ساحات القرية، ونبشوا كل قبور الموتى، سألوا عنه الطير وكل الحيوانات، صعدوا هبطوا نزلوا حفروا، ضاعوا تاهوا نادوا صرخوا فقدوا بعض رجال القرية، وبقر القرية، حمر القرية، حتى الكلب الأشقر مات ركضوا لطموا بعد سنين سألوا الحارس، أين حذاء الريس، هز الحارس رأس الجملة، ضحك قليلا داعب شاربه المعقوف، قال بصوت الظامئ: مات، أشار لطلة رجليه موطئ قدميه نادى يا مختار، رجال القرية جاءوا جاءوا معهم قصص وروايات

همسات فوق العتبات

ما كدت أعبر أول الزقاق حتى نادتني أم شديد ووجهت لي أسئلة متتالية عني، وعن أهلي، وعن زوجتي وأولادي،وعن كل من أعرفه ومن لا أعرفه، وكاد مسلسل الأسئلة الهوائية هذا أن يستمر لولا أن جارتنا أم سويلم نكزتها ولكزتها قائلة: سليه عن حلمك أمس فسرقت أم شديد نظرة من عينيّ أم سويلم، محمد أيها الدكتور أفتنا في ثلاثة فراغل(صغار الضبع) وضبعانة حملني الأول عن الأرض وقبّل رأسي، ثم وضعني على الأرض، ثم حملني الثاني وقبّل يدي ثم وضعني على الأرض، ثم حملني الثالث وقبّل خديثم وضعني على الأرض، ثم ألقت الضبعانة جسدها عليّ وصارت تشدّ شعري وتشدّ أذنيّ وتسدّ منخريّ ثم شفتيّ وهي تنظر بحزن إليّ، ثم حملتني فوق رأسها، وألقتني على الأرض، ولولا أنّ أم سويلم أيقظتني لكانت الضبعانة قضت عليّ..

قلت لها: يا أم شديد هي أظغاث أحلام، وما أنا بتفسير الأحلام بخبير!

فبسطت يديها على بساط الريح، وقالت: روح طير روح طير، ثم التفتت إلى أم سويلم وقالت لها: أما قلت لك إنه لا يعرف شيئا، هذا من حملة الشهادة مثل القلادة، وبس!؟

همسات عتبات

أبو شديد بعينين غاضبتين جاحظتين وفم تتساقط الحروف منه وتتقافز: تعال يا محمد، تعال يا دكتور!

- خيرا يا أبا شديد؟

أبو شديد وهو يدجن ننظراته ويغطيها بغيمة يابسة من الهدوء: هل تراني خروفا؟

حاشاك، أنت رجل ونعم الرجال!

يتلقف ابو سعيد إجابتي، ويركض بها بين يديه وأصابعه: قل هذا لصاحبك في جريدة الحياة!

- خالد؟ ماذا قال هذا المشاكس؟

- قال لي ستبقى خروفا

وأنا أحبس ضحكتي: لا ريب أنه يمازحك!

تدخل أم شديد وكأنها قنبلة موقتة انفجرت في وجه أبي شديد: دفعت فاتورة المي؟

- نعم!

- فاتورة الكهربا؟

- نعم!

- قسط غرفة النوم

- نعم!

- قسط التلفزيون؟

- نعم!

- قسط الثلاجة؟

- نعم!

- قسط (باص) المدرسة

- نعم!

-اشتريت الأغراض التي طلبتها منك؟

-نعم!

-تخرج أم شديد

يحوقل أبو شديد، ثم يقول يا رب رحمتك! أأنا شو دخلني بصفقات السلاح، ومين أجا ومين راح،ومين ثار ومين جار، ومن صفق ومين طار؟! أنا بمشي الحيط الحيط وبقول يا رب الستر، هل تحسبني خروفا؟!

- بل أنت أهل للمديح!

المتقاعد

قالوا يا محمد، عندما تتقاعد ستتفرغ لنفسك وروحك ولإطفاء الأنوار ونكش الأرض وسقاية الأزهار والجلوس لشرب القهوة والشاي قرب النار، وسترتاح من روتين الدوام ومن مشقات العمل، ومن انتقادات المديرين، ومن مساءلات اللجان، ومن جلافة المسؤولين، وقالوا:عندما تتقاعد ستتفرغ لكيّ الملابس وطيّها، وغسل السيارة، ونقع قدميك في الماء، والمشي في الأسواق كالديك ستشتري ما تشاء وما تتمنى، وما تحتاج وما لا تحتاج، ستقرأ الجريدة كل صباح، وتطارد القطط المتناحرة، وتشاكس الباعة المتجولين، ستتفرغ لانتقاء جرة الغاز،وانتقاء حبات البطاطا. ستجلس على الرصيف بسروالك الواسع لرد التحيات:

- يا هلا يا هلا

- أهلا ابو محمود، اتفضل

- هلا ابو خالد تع فوت اشرب شاي

- ابو علي وينك زلمة من يومين ما مريت؟

- اهلين يا سالم، كيف ابو سالم لساتو مريض؟

ومصادرة الكرات الطائشة:

- ولك يا قرد مش قلت لك العب غاد بالفطبول، هسع رح ابعطو!

وستتفرغ لحلق ذقنك مرتين في كل صباح، والنظر إلى نفسك في المرآة لتعرف كم شيبة زادت وكم تجعيدة ظهرت، ستجمع من حولك الأصحاب للعب الشدة وإن كنت لا تعرف كيف تلعبها، وستتفرغ لانتقاء الأحاديث وتفريغ ما حبس في ذاكرتك من بطولات فيها، وما تمنيت منها.

عندما تتقاعد ستقود قافلة القاعدين من رجال الحي، وستسعى بقوة لتكون مختار الحي،ورئيس لجنة رعاية المسجد،ستتدخل في نزاعات الجيران كلهم، وفي مشترياتهم، ستتدخل في طريقة مشي فلان، وفي لبس فلانة، وستتفرغ للقيل والقال، وتلبس الحطة والعقال والدشداشة والسروال، وستتحدث طويلا عن بطولاتك المطمورة.

ولكنك أمس، نعم، أمس اكتشفت أن مشاريع التقاعد أضغاث أحلام، بل أنفاق ممتدة من الأوهام؛ فأنت أمام سلسلة طويلة من الواجبات من نوع (وإلا)؛أنت أمام مشاوير طويلة متتابعة متواصلة متعاضدة لدائرة ضريبة الدخل لدفع الإقرار الضريبي (ضريبة النفس العارية)، ودفع ضريبة على كل ما تملك من ذكريات وأفكار، ستسافر بين دوائر عدة؛ دائرة الضريبة والضمان والأحوال والأراضي وغرفة التجارة والصناعة.....

وأنت ستكون أمام طوابير ممتدة محبطة من ادفع وإلا: طابور فاتورة الكهرباء

طابور فاتورة الماء

طابور الصراف الآلي

طابور الخبز

ولا تنس طابور الدواء

بعد تقاعدك يا صاحبي ستجبر على شد الأحزمة أكثر؛ فراتبك سيتقلص وسيتجمد وسيتآكل

بعد تقاعدك سيكون أمامك كل المشاوير التي كنت تتهرب منها بحجة الوظيفة والعمل والتعب، سيكون عليك، بعد أن تتقاعد، أن تفعل كل ما كان غيرك يفعله...

الباصم

وقف محمد أمام البصمة وهو يرى القلق واقفا منتصبا فوق عيون معلم التاريخ الذي انخرط في الطابور الساخر عند البصمة، كان يسمع طابور تمتمات ووشوشات تتلاطم كموج البحر، وأمامها وقف معلم اللغة العربية بابتسامة رخوة وهو يتسلح بسبع وعشرين عاما أشعلت رأسه شيبا، وبآلاف آلاف الابتسامات الصباحية والمسائية والتحيات.. وضع إصبعه على المكان المحبوس بأسئلة الشك وكأنه يلقي التحية الحنونة المريحة التي تعود إلقاءها على دفتر الحضور عندما يغرس توقيعه صباح كل يوم، ولم تسلم عليه، لم تبادله التحية، بل استقبلته بجمود يابس وسكون عابس، ولم تكلمه فأعاد وضع إصبعه فقالت له: عذرا، أعد المحاولة. فأعاد وضع إصبعه برقة وحنان، فقالت له مرة أخرى: عذرا، أعد المحاولة. كتم غيظا أسمر، وقمحا شنفريا، واستف اللحظة بروية وحنان كما يحب أن يراه تلاميذه، وتابع استعراض أصابعه التي أوهنتها الأيام، وطمست معالم أناملها التفاتات الأقلام ومداعبات الطباشير...

الخنصر ثم البنصر ثم السبابة ثم الإبهام، وصار يلملم نفسه، ويصقل الغرفة بالمرح ليتابع تلقين الآلة أسماء أصابعه والفتاة التي

تحتل الآلة تعتذر منه بجفاف ويباس وحدَّة، والعيون التي تراقبه تحاول أن تخفي حزنها وتكتم غضبها

- أستاذ، تسمح أجرب!

"كنت قبلك أول الواصلين، وأنا اليوم أولهم، فلم تحاولين تأخيري؟!"

التفت إلى المعلم الشاب وهو يستعرض مسامات أنامله بنظرات تنبض نشاطا وخفة:تفضل يا بني!

ثم قال مخاطبا العيون التي تصنمت حزنا وحبا محاولا تخفيف الحرج الذي لفها وهي تراقبه وهو يمتص قسوة آلة البصمة: لكأني لم أعلِّم هذه الفتاة المتمنعة أسماء الأصابع، وأجزاءها..!

وضع المعلم الشاب إصبعه فصاحت الآلة بفرح: بصمة ناجحة وشكرا!

استل المدير روحه من بين توجعات النظرات، وقام يعاتب تلك الفتاة التي لم تحسن استقبال معلمه..

- هذا ليس زمني، بل لم يعد حتى مكاني!

ثم قال بدماثته المعروفة: كأني لم أعلّم من وضعها وعلمها حروف الوفاء، واستل عينيه من بوتقة الصمت الذي حشر المكان في آلة البصمة،ونظر إليها بكل الماضي الجميل؛ بابتسامات طلابه وفرحهم واندفاعهم لحمل العبء عنه وهو يسير بخطاه الصادقة الأمينة...

اهتزت الآلة وربت، وقالت: شكرا، بصمة ناجحة!

وانطفأت حيرة النظرات قليلا، وانحنت تربت على قلب المعلم الذي أرهقه جفاف الآلة وكثرة اعتذاراتها اليابسة، وانتقلت بعيونها الشاخصة المتفجرة إلى أصابع محمد وهو يتفحصها ويمسحها ويقلبها ويفركها معباً بتعب السنين، والآلة تراوده عن حبه...

المتسائل

على عتبات الزقاق جلست أم شديد بثقة المتصدر، وبزهو العارفين قالت للنسوة بصوت عالٍ لتسمعني خلاصة تجربتها في الفرق بين فرط الملوخية وفرط الزعتر: فرط الزعتر أسهل من فرط الملوخية؛ لأن فرط الملوخية يكون ورقة ورقة، وأما فرط الزعتر فيكون في اتجاهٍ واحد، وصارت ترسم بيديها انحناءات الأصابع على ورق الزعتر، ثم أضافت: تذكرن، من أسفل إلى أعلى، فرط الزعتر من أسفل إلى أعلى.ثم التفتت إلي وقالت بفم مليء بالحسرة والخوف:

يا دكتور، صحيح أنو في السوق بيضا صينيا، يعني بيض ما باضته الدجاجات فأسرعت بالرد لأنجو من تعليقاتها اللاذعة وقلت لها: نعم نعم ولكنه ما وصل لسوق الزرقاء بعد.

- الله يهدهم هالصواينة، صنعوا كل شي، وبضحكة خبيثة وزعتها على الجالسات، وبابتسامة ملئية بالإيحاء قالت: حتى صرت أشوف كثيرا من رجالنا صيني، تقليد التقليد...

إحدى الجالسات وزعت ضحكة واسعة الأطراف امتدت إلى عتبات الزقاق كلها وقالت: والله صحيح!

قالت أخرى أيقظتها الشكوى: بدون زعل يا دكتور، حتى علامتكم في المدارس شكلها صناعة صينية، معقول ابن شملة معدله

ثمانية وتسعون وهو لا يعرف القراءة، ولا يستطيع كتابة سطرين من غير أخطاء...كل شي صاير صيني!

المستذنب

ناداني البارحة أبوشديد ليسألني عن معنى قولهم فلان ذنب، فشرحت له أنواع الأذناب ومعاني كل ذنب، ولكي تعم الفائدة، أعيد ما شرحته لأبي شديد عن الذنب، فاعلموا، يا رحمكم الله، أن الأذناب أنواع متنوعة وألوان مختلفة وأشكال كثيرة متشاكلة، لكن فيها ولها صفات ووظائف تجتمع عليها وتتصف بها؛ فالذنب تابع من التوابع الظلية لجسد كل كائن حي عدا الإنسان، لا يتقدمه ولا يفارقه، ولا ينافسه ولا يجاريه، ولا يوازيه ولا يباريه، ولا يحاكيه ولا يحاوره، ولا يجاوره ويعاشره. والذنب ملاصق للحيوان يهش به على كل ما يؤذيه، فهو مذبته، وحكاكته، ويداعب به صغاره، فهو لعبتهم الأثيرة يطاردونه ويمازحونه. وقد يبيَّن به حاله فهزه في حال الفرح ويشنتره في حال الغضب، فهو مصدر توازنه، ومبعث راحته، وأداة مهمة من أدوات بناء هيبة شخصيته، وسبب من أسباب جماله. وقد أعجب بعض الناس بالذنب أيما إعجاب فحاكوه وتمثلوه وقلدوه وامتهنوا شخصيته، وقلدوا وظائفه وطوروها لتتناسب وتنوع مهمات الإنسان وواجباته ومناصبه، فامتلأ ت الأرض على مر العصور بشتى أنواع الأذناب؛ بالأذناب السياسية، والأذناب الثقافية، والأذناب الدينية، والأذناب العلمية، والأذناب الأدبية والأذناب الكونية،

والأدنـاب الدوليـة، والأذنـاب الاقتصـادية، والأذنـاب الرياضـية، والأذنـاب الصـناعية...والدراسـات عـن الأذنـاب البشـرية قليلـة نـادرة لأسـباب كثيرة سـيأتي الباحث على ذكرها في مقالة خاصة، ولكن ما يبعث على الاطمئنان أن الأذناب البشرية معروفة وظاهرة وبارزة لا تفتأ تذكر وظيفتها....

المتفرج

- اسمعي، اسمعي يا غبرا، شو كاعدات بغنين المغنوجات إمات البسكوت والبودره والحومره!

تنصت سمحة لمجموعة من النساء المزركشات في فاردة عريضة احتلت الشارع وبسطت أجنحتها على أرصفته، وهن يرقصن ويتقافزن داخل باص عمان الزرقا ويصفقن بحرارة، حاولت سمحة تجاهل مجموعة من الأطفال الذين أخرجوا رؤوسهم من نوافذ الباصات، وحركوا وجوههم وألسنتهم وأيديهم بحركات استفزازية، وملؤوا الشارع صفيرا وصراخا:

- ولكو انتو قرود، الله يسخطكم!

- ولتش شو بكولن؟

سمحة بصوت مرتج عال: يا شوفير دوس دوس الله يبعث لك عروس!

- شكلو الشوفير من كرايب العريس!؟

- لا يا ام شديد، هذي أغنيات الباصات في الأعراس

- عزا، وشو دخل الشوفير بالعرس،هظا بدل ما يغنوا للعريس بغنوا للشوفر؟!

ويرتفع صوت النسوة في الباص: يا شوفير ادعس بنزين عالمية وتسعة وتسعين

- أم شديد، ولتش يا سمحة شو بقولن؟
- يا شوفير ادعس بنزين عالمية وتسعة وتسعين

أم شديد وهي تضرب كفا بكف: يدعس عليتشن تسعة وتسعين قرد

ويرتفع صوت الضحكات في الباص، وتضج الحارة بصوت غناء النسوة وهن يرددن: يا شوفير اطلع هالطلعة الله يخليلك هالصلعة.

أم شديد بامتعاض: ولتش يا عبرا شو بقولن؟

سمحة بتأفف: يا شوفير اطلع هالطلعة الله يخليلك هالصلعة!

- واصلع كمان!

يرتفع صوت نسوي حاد كأنه وتر قيثارة هارب ويملأ العتبات برقة أنثوية شفيفة: لا تتطلع بمراتك يا شوفير احنا مثل خواتك يا لالا

أم شديد وهي تحرك شفتيها يمنة ويسرة: يخاويكن جني ان شا الله!

آه يا سمحة،سقا اللهعلى أيام زمان، على أعراس زمان، وأغانيها!

اقشعرت الحارة، وتكركبت، وارتبكت وهي تُجبر على مشاهدة اختراق قافلة طويلة من السيارات، والباصات، والقلابات، والبكمات،

مستبيحة سكونها بأصوات صاخبة مستفزة بأبواقها المختلفة المتنوعة، وبمقاطع زامورية محددة كأنها لازمة في قصيدة معاصرة.

وفي وسط هذا الحضور الصاخب كانت سيارة حمراء مزينة بالدناديش والشبر تخطر بزهوٍ وتباه وسط الشارع، وكم حاولت العروس إخفاء غضبها من إيدي الأطفال وهي تجرد سيارتها من الورد، وتنزع عنها الشبر! وكم خرجرت عن سطرها ووقفت تشتمهم بشتائهم حارقة خارقة...وعلى طرف الشارع وقف شرطي وراح يسجل بهدوء أرقام لوحات السيارات المشاركة في الخيط البهلواني الراقص

وعلى بلكونة مطلة على الشارع اشتد الجدال والعتاب بين سريوه وزوجته التي راحت تذكّره بسيارة العروس التي تعطلت بهما، وبأنه حملها في بكم أبي علي الذي كان يتبع الفاردة وهو يحمل عشرات الصبية في صندوقه.

وفي بلكونة أخرى كانت شنارة تندب حظها، وتوجه اللوم لمحمود لأنه لم ينتبه على وجود مسامير في الممر الترابي لبيت الزوجية، ولم يحمها ولم يحذرها حين داست واحدا منها جعلها تقع على الأرض بثوبها الناصع وهي تتلوى من الألم والغضب والقهر.

وعلى بلكونة أخرى كانت أم شديد تنظر بغضب إلى أبي شديد الذي راح يراقب بشغف صامت موجات النسوة المشاركات في الفاردة

- بحلق، بحلق، لا تضيع عليك وحدة من المغندرات، يا مأمنه على الرجال!

ابو شديد وكأن عقربا لسعه: خير مالك؟

- لع، ولا اشي، بس شايفك سرحان وغركان!

- يا بنت الحلال، استهدي بالرحمن، انا بتفرج عالعرس

- عالعرس!

- خلص، لازم تنكدي علي، طبعتش وما بتتخلي عنو!

وتوقفت عيون كثيرة عن الرمش لمراقبة الصبايا المتبرجات المتعطرات الكاسيات العاريات اللامعات المبرقات وهن ينزلن من القافلة لدخول الصالة

راحت أم شديد تتلاعب بشفتيها ذات اليمين وذات الشمال، وتحرك يديها حركات شاقولية موحية:ها، شو مالك صفنت وسرحت وريالتك نزلت من عينيك؟

- يا بنت الحلال كاعد بكول يلعن أبو الذبان ما اثكل دمه!

همسة عتبة

أم شديد التي تزنّرت بحزامها الشامي الثمين، ولبست ثوبها المخملي الناصع البياض نادتني أمس قبل الإفطار وقالت لي إنها تريد أن أجمع لها رجال الحارة ونساءها، وإنها تريد أن تعترف بأمور خطيرة فعلتها قبل أن تتوب أمس إلى الله، وقد قصّت عليّ سبب توبتها بعينين دامعتين، وبيدين متشاكلتين، وجسد منطو على رأس طأطأ مثقلا بما حمل، وحروف أناخت عند مستودع عميق من رائحة الندم والحزن فحملت منه ما استطاعت.

قالت لي: يا دكتور، البارحة عند درج الدار، عند تلك العتبة، وأشارت إلى عتبة حجرية متعبة من كثرة الكنس والشطف، ظهر لي، بسم الله بسم الله،اللي هو، وقال لي بصوت عالٍ: يا أم شديد، جاءك العيد، وليس الموت ببعيد، وفص ملح وذاب..

وعندما سألتها عن شكله وصورته وصوته قالت:

طويل طويل، وعلى رأسه طاقية بيضاء، ويلبس ملابس كملابس النساء بيضاء طويلة، ويحمل قلادة على صدره مكتوب عليها طش طش طش تحت جناحي نسر، وصوته يشبه صوت جابي الكهربا، وصوت الموظف الذي يأخذ المصاري في دائرة النفوس، وسمسار الأراضي الخواجا، لكن صوته أقرب إلى صوت هذا الرجل الذي يلبس

إفرنجي على التلفاز وهي تشير إلى رئيس وزراء دولة مليئة بالأعماق، ويضع خطوطا وعلامات على أرصفة المهمشين!

فقلت لهايا أم شديد، وبم ستعترفين غدا؟

قالت: مبدئيا سأعترف بأني لا أحب جارتنا أم هزارة، وما أحببتها يوما لأنها تطلب وتطلب مني وتأخذ ولا ترجع، وحين أطلب منها كنار بصل تتحجج وتتأفأف وتتقلب، وأكره صاحب الدكان لأنه يرفع سعر طبق البيض كل أسبوع أربع مرات. وسأعترف بأنني أكره الشوفير شلوش لأنه رفع أجرة السيارة هذا الشهر عشرة قروش. وسأعترف بأني أكره هذا الذي يحمل فواتير الكهربا، وخويه الذي يحمل فواتير الماء، والله ما شفتهم وشفت الخير، كل فاتورة أعلى من التي قبلها وأكره...ولم أدعها تكمل الحديث، فقالت بغضب: أنت الذي سألني؟ فقلت لها سأذهب الآن إلى اللبيت لأرتاح، وعند العشاء أخبر المختار بطلبك، وودّعتها وهي تصم شفتيها وتعصر يديها ما كدت أدلف البيت حتى سمعت صوتها خلفي وهو يجذبني من عيني:

اسمع بطلت أعترف، بستين داهية انت والمختار والقرية ونسوانها وزلامها!

الحراكي

وقف محمد على طرف المنصة الاسمنتية بثبات وثقة، وقرأ أمام الطابور الصباحي بصوته الجهوري:

هو وهي وكانا

عندما اغرورقت الممرات بالدموع، واستسلمت غصون الأشجار لارتعاشات قلبين خالط نبضهما خوف من الفراق قالت له: رفقا بقلبي فقد وضعته في دفترك ليحتمي بحروفك التي حملتها حفيف همساتنا ووشوشات قلبينا ...

قال لها: رفقا بقلبي فقد أودعته عينيك فلا تبلليه بدموع الفقد، واسقيه حروفنا التي نسجناها معا بلهفة وشغف...

في السنة الأولى شرب الغياب ملامح الكلمات من رسائله.

وفي السنة الثانية شرب الزمن عباءة القلق من عينيه.

وفي السنة الثالثة تذكر أنه كانت في قاموسه كلمات ليست كالكلمات...

و أكله الربيع...وصار علامة تعجب، ثم علامة استفهام، ثم ملأت صورته في عينيها آلاف من علامات التعجب والاستفهام

هي أكلها انتظار أن يعود ذلك الذي الغصن الذي ظلل قلبها بالحب

هو ابتعد كثيرا في رقصة البين

هو وهي صارا حكاية من حكايات العتبات...

صفق الطابور بحرارة، وانشغلت العيون عن محمد بمراقبة المعلم وهو يشير إلى طائر أبي النقر وهو يستمتع بعزف منقري لبناء بيته في أعلى شجرة السرو المطلة على غرفة المدير...

زرقاء

كانت أم شديد تبحث عن أذن في الحي، فحديث نساء الحي عميق تجرفه الأقدام، والساعة تقفز مثل غزال في يدها، والنبض عميق في الكتمان، خوف تذروه رياح هائجة الوجنات، والشارع في فمها حتى ناصيته مزدحم بغناء حزين ودَّع قبل قليل بعض حياة ويموج الشارع بالأصوات رائحة وأسماء الأموات تتقافز فوق عيون شيوخ الحي...

قالت للسائق دربك منتوف الريش

أعطت للجندي الصامت خارطة لأثافي الليل

صكت وجه الساحة بالنظرات

قالت: في الدرب عيون تتقن قتل الحب

تركض من جهة الغرب

تنشد لحنا دموي الأرداف

ناري الأوصاف

في وجه شيطاني الطلة

قلت لأمي والساحة تمطرنا شتما وصفيرا وحجارة: إن وصلت باب المسجد يوم الجمعة هذي الصورة كيف يكون الموقف في الطرقات

قالت والصبر يعانق عينيها، يا ولدي، إن راح الوقت ستغرس تلك النارية في حقل القمح بذور الحنظل

إن وصلت باب الحي ستجعل منكم خدما وعبيدا للشهوات...

سمعوا صرختها حين رماها القوم بآلاف الطعنات

أم شديد صرخت غضبت لكن الأذن الأخرى كانت تحبس حرف الحب عن الأصوات

قالت والقصة غامضة لا يمكن أن تسكن في الكلمات، يا قمح، يا سنبلة الحب،يا لحن القلب، في قلبي ناموا، ناموا في قلبي...فأنا فوق السور وأرى بحّارا وبحارا ورفاة، ودخانا يجتاح ديارا وغيوما تسقط أسوارا وجهات..تنفت أحقادا ودمارا ومماتا، وأرى في الصورة أشلاء رجال بلباس البحر

-: تبا. يا زرقاء

- تبا، أيقظت الخوف وفتحت الباب على الماضي، أقلقت الحاضر وبعد سؤال وسؤال قالوا عن رجل أشقر، رجل من أقصى الحي المتخم بالويلات:سمعوه يقول: البحر..

لساحة..والأسماك...الشجر..النهر..وساحات الدنيا...رقصة قلبك..أحلامك، صرخة طبل مات...

قالت أم شديد:أسمعُ صوت الدبابات،وأنين العشب اليابس، أسمعها تقترب الأصوات

وأرى في الصورة، يا ويلي، أحذية لامعة...

: تبا تبا!عودي للنوم أيا زرقاء، فحديثك من نار ودماء

أم شديد: يا حبي، يا حبة عيني، النار هنا في مشرقكم، في مغربكم، النار النار ستحرقكم

: عودي عودي!

وفي الطرف الآخر من الغرفة المثقلة بالأصوات استلقت شاشة الحاسوب بخبث وسخرية في غرفة سميرة وهي تموج بزهرة صفراء تشققت أطرافها، وانحنت رقتها، وتباطأ بوحها.

تساءلت سميرة عن هذه الشاشة التي أمامها، وعن سبب وجودها في هذه الغرفة واستغرقت في تساؤلاتها، ولكنها تسمّرت فجأة أمام المرآة حين واجهتها صورتها، ورأت ملامحها اليانعة تشير إلي سمرة بحرية صافية، وشعر طويل أشقر، وعينين سمراوين واسعتين.

أطلت من النافذة رأت وجوها كثيرة تائهة تسير على غير هدى تضرب في شوارع القرية، تقف حينا وتمشي حينا، وتنظر في زوايا الأمكنة علها تتعرف أحدا ينتشلها من تيهها،

أين أنا، من أنا، ماذا أفعل هنا،ماذا يوجد خلف هذا الباب،هل أخرج لأرى؟ لا لا، عليَّ أن أتمهل وأفكر....

وفي الغرفة الثانية وقفت أم حريص تترقب بخوف وحذر خروج صاحب هذه الجلبة من الغرفة المغلقة، ووقف أبو حريص إلى جانبها يبحث في ذاكرته عما يمكن أن يكون في الغرفة المغلقة، ولكنه لم يعثر على ذاكرته فبسط كفيه للحيرة...

وأفاقت قرية بيت إيبا في اليوم العاشر من حزيران على صرخات جنازير الدبابات وتقافز دجاجات أم محمود وديكة القرية حول هياكل تلك الوحوش الحديدية الضخمة وتحتها وفوقها...

وفي طرف قصي مطل على رقصات الريح حملقت حمامتان بعينيهما الوادعتين، وتابعتا باستغراب مرور هذه المخلوقات الحديدية من أمام أشجار الزيتون بسرعة وخفة وزهو، لكنهما لم تفعلا شيئا لإيقاف تدفقها وتبخترها.

أفاقت أم شديد من نومها، وبحثت في عمق ذاكرتها عن هذا الصوت الضخم الذي مر من أمامها، ولكنها لم تعثر على ذاكرتها نفسها، وحاولت تحسس ملامح هذه التي تحملها وتشاركها كلماتها وأحاسيسها، لكنها لم تعرفها، أفاقت أم شديد بلا اسم أو عنوان أو صفات، أفاقت بلا ملامح تعرفها عن نفسها، وبلا بوصلة تحدد لها

أيـن هي، وأيـن كانـت، ولـمَ. ووجـدت أم جمـال نفسـها في المجهـول نفسه،بين أحضانه التي كثيرا ما حكت للأطفال عنه.

" مـن هـذا الـذي يملأ الغرفـة اليابسـة بشـخيره: مـن أنـت يـا أنت؟

أبو شديد بتعجب واستغراب واستنكار: ومن أنتِ، يا أنت؟

أم شـديد: أنـت اللي مـين، ولـيش نـايم هـون على... أرادت أن تقـول سريري، لكنها لا تذكر أن لها سريرا، ولا تذكر أنها نامت على سرير، بل لا تذكر أنها نامت، هي لا تذكر شيئا تعرفه، ولا تعرف شيئا تذكره، فصمتت واستسلمت للحيرة!

مشى أبـو شـديد في شـوارع القريـة بحثا عـن شيء ما يبـدأ بـه حياتـه، ولكـن شـوارع القريـة كانـت مليئـة بالسـائلين المسـتغربين التـائهين، ويمشي على عيونهم وفي قلوبهم السؤال والحيرة والارتباك...

- يـا أم شـديد، وآخرتهـا مـع ابنـك هـالوحش زودهـا كثيـر؛ امبـارح شـمطني كـف، وقبلها طقعني بالطابة، وقبلها خمعني بالحجر، وقبل يـومين فـات على خـم الجـاج وسـرق البيضـات، وقبلها سـرق بقلـولتين مـن حـوش الـدار! وأم سـالم قالـت لي إنـو دنـدوش سـرق مـن خبزهـا رغيفين، وكل يوم بيسرق مصروف ابن فتحية، وكل يوم إلو طوشة...

أنا بعرف إنو حيوان، ومعاه جينات من الشيطان؛ بس لازم تعملوا له ستوب يعني كتير هيك!

- يقبرني هالولد شو حباب، بس إنتو ما بتعرفوا تتعاملوا معو، هاظا رح يكون شخصية مهمة كثير بس يكبر"

وقضت القرية سنوات طوال في تيهها وضياعها وحيرتها، تجتر أسئلتها، وتخض روحها بلا عنوان...

قال أبو شديد: بكل صراحة وأمانة أقول إنني لا أعرف من هو حديدون، وإنني لم التقه يوما، وكل ما أعرفه عنه أخذته عن أمي، فهي التي كانت تقول لي دائما:"خرافك مثل خراريف حديدون، ولم أسأل أمي يوما من هو حديدون، وما حاولت خوفا من أن يكون من أقرباء أبي وتكون معرفتي له سببا في اشتعال نار وقودها الناس والقرية، ولكن لخراريف حديدون طعما لا ينسى، يظل عالقا في الذاكرة، ويسكن على طرف اللسان، وعلى بوابة الأذن. وبين أسناني وفي تقلبات لساني.

ومن خراريف حديدون أن أم شديد كانت تقول إن تربية الدجاج في زرائب الأغنام أنفع وأجدى من تربيتها في أقنان، وكانت تعطي الأغنام الحمراء امتيازات في الأكل والشرب، وتعطي الدجاج

الهندي امتيازات تفضيلية، فتخص كتاكيتها بما لا توفره لبقية الكتاكيت، وكانت تصر على أن تعطي للديكة جلَّ اهتمامها ورعايتها؟ ولم يعترض أبو شديد على هذا التدبير وهذا التمييز. وكان يجيب إذا سئل عن ذلك: أم شديد ما بعيد وراها، فهي أعرف وأدرى بالغنم والدجاج مني، وأنا أعطيت القوس باريها..

ولا أدري إن كانت أم شديد وضَّحت العلاقة بين حديدون وعبد الواحد ولكنها لا تخفي كرهها الشديد لعبد الواحد، بياع الحكي، حبنقة، كما يلقبه أبو شديد، فهي كلما رأته قالت بصوت عال: جاء بياع الحكي، وصارت تغني بصوت مماحك؛غليون كذب من قال غليون كلو من بيع الحكي.

وعبد الواحد من قرية الرطبة التي هُجِّر أهلها منها بالمدافع اليهودية، ويعرف أهل القرية أنه كان من أبطال الخطابات المنمقة، وأبطال الاحتجاجات، وأنه عندما حان الأمر وجد الجد، حمل سرواله وهرب تاركا بقرته ودجاجاته وأطفاله لسكين عصابات شتيرن، ولمن لا يعرف عبد الواحد، فهو صاحب الشاربين العريضين الذي يجلس في مقهى الشعب ليحدث عن بطولاته أيام فلسطين، وهو عضو عامل في النوادي الأدبية والصالونات الأدبية، وممن يتحين كل الفرص لينثر قصائد حب فلسطين على مقاعد الكتاب والشعراء والنقاد والعاملين

في السياسة، وهو عضو فاعل عامل في حزب مشهور معروف ذي توجه ارتوازي. عبد الواحد يعرف أن أم شديد تكرهه ولذلك فهو يحرص دائما على عدم المرور بالمكان الذي تجلس فيه؛ فهو ما زال يواجه سيل التمتمات والهمسات التي تتحدث عن آخر شتائمها له: عبد الذات، عبد البطاطا، عبد الحرف، عبد الكرسي، البس، الأرنب.. ولأنها تظل تقول لجاراتها:اللي مجنني إنو ما تاب من تجربته في فلسطين، وبينقد الطايح والرايح وهو من ريحتو طايح!...

قالت سعاد: تسللت عبر أثير الحنين لألقي التحية، رشفت قليلا من الهمس، تذوقت بعض الحروف التي كنت أمشي بها في الطريق، حملت معي ما ترين من الصبر والانتظار، وجئت إليك شريدا طريدا بلا أمتعة، وليس معي غير قلبي وخوفي عليك، ونبض شقي، وقلب نقي، وعينين من قلق وانتظار، وشوق تبرج بالحب...فلا تنهريني لأني تأخرت بعض العقود؛ ففي عاصفات الرزايا سكنَّا، وألقت علينا الليالي خطاها، وها قد أتينا بملء هوانا، بكل خطانا، بما يسكن الروح من سوسنات، بكل الحنين الذي يشرق الآن في الأوردة، أتينا لنلقي عليك الهوى تضحيات، أتينا وفي كل قلب لنا ذكريات

في صباح آخر كان همس عميق يدثر ممرات القرية الترابية، وصفير متقطع يجرجره الصدى على التلال الخضراء المنتشية برشات

المطر التي سكبتها يد كانون في عيون الشجر وأفواه الحقول، وقف الجيب المنتشي بالقوة مغرورا منتفخا على حافة الوادي المطل على دار أبي شديد، ونادوا من علٍ أن ارفع يديك، وانبطح على الأرض ففعل، وصرخات شديد تشد السماء من يدها لتحمي أباه من عصي الجنود المتنمرين، الذين لم يلتفتوا لصرخات أمه وأخواته، ولا لاستغاثات جدته، ولا للرجفة التي سكنت قلب أخته سمر وجعلتها بلا حراك ولا لسان، وربطت حياتها بالسكون منذ ذلك الوقت...

لم يصمد أبو شديد طويلا في مواجهة العصي الشاردة الطالعة النازلة المتثائبة المتمطية على جسده...

قال شديد لشباب القرية: هذه رقصة الكراهية التي وقرت في قلوبهم، وعملت بها أيديهم وألسنتهم، الجنود يا أحبتي رسموا ما تربوا عليه وأحبوه وتدربوا عليه...هم لا يتقنون غيره..

كان دخول الجيب العسكري الحدثَ الرئيس والمحور الأساس لأحاديث القرية، وقهوة نسائها الجالسات على عتبات الدور في قريتي، وكان هو الحدث الأهم لشباب القرية، فقد همسوا به كثيرا حتى أطلت الصباحات على خيط من الجيبات...

بكى شديد حين علم أن والده سيشتري سيارة، واحتضن أمه بعمق، وقال لها: لا أريدها أن تشبه الجيب، ولا لونه، ولا إطلالته،

اريدها حمراء يا أمي، ولها عينان رحيمتان جميلتان كعينيك، ولها وجه كوجه أبي حين تلاطفه زيتونة في حقلنا البعيد، أريد أن تكون عجلاتها كقدمي أبي الثابتتين الراسختين في دروب القرية وفي ترابها، أريدها صافية من أطياف حلمي، زرقاء بطعم الفلفل حين تتعثر به الروح

ضحكة أم شديد وصلت أطراف السرير، وحبت على عيني شديد،فأقبل على يدي أمه يقبلهما...

وأنّت طرقات القرية مثقلة بأعواد القصب ومطرزة برائحة الطوابين، ونساء القرية متزنرات بخيط أثر المرور عندما مرت سيارة أبي من بين امتدادت الحلم ونظرات شاخصة وقلوب واكفة، وعيون خافقة، وقلوب مشرئبة تستسقي التفاتة من عيني أبي

قالت النساء حينها: نيالك يا مريم! وقال الرجال نيالك يا أبا سليمان! وقال الأطفال نيالك يا شديد!

وامتيطنا السيارة، وخضنا بها في ممرات القرية الترابية، وهي تحاول الإفلات من أبي والهروب إلى الوديان السحيقة المرحبة، وعلى طرف بعيد قصي كان اليب العسكري يراقبنا ونحن نحاول التقاط الفرح

أمضت السيارة معنا ليلة طويلة قلَّبنها ظهرا لبطن، وتفحَّصنها بعيوننا وأناملنا وحروفنا.. نفخنا على أبوابها، وتحسسنا نعومة جلدها،

وأنمناها على جنبها الأيمن، ودثرناها بأحلامنا وبساعات الغد بصباحه ومسائه وليله.. كانت أحلامنا تملأ الأسرة، وتضمخها حتى تضج بها، فتخرج من بين أفواهنا ابتسامة أو حلما من شهقة أو تنهيدة...

وجاء الصباح واصطففنا أمام السيارة نحاول أن نلملم منها أحلامنا، وانتظرنا بعيون شغوفة أن يفتح أبي الباب، وما إن فعل حتى دحشنا في الكرسي الخلفي، وسار مبتهجا يسكب الصباح الفرح في قلوبنا، وعلى وجهه قبلات حلم لازمني عمرا

وفي الطرف البعيد كان الجيب العسكري يلاحقنا

سارت السيارة من نابلس إلى يافا برقة وهدوء، احتست قبلات كثيرة من أشجار البرتقال والليمون، واستسمحت طبقات من نغمات الحنين التي لاصقت قلب أبي وهو يمر على قرية صاحبه محمود..قال لي أبي:هذه يافا!وعلى مفترق طرق في يافا امتدت يد من خيوط عنكبوت وأسنان ذئب ومكر ثعالب إلى حلمي، وسرقته من بين عيني وأهدته

لذلك الجيب القاتم...

المستحمر

قلت لهم: لما وجد الفلاح أن أرضه محاطة بالسباع والضباع خاف على أولاده أن يكونوا فرائسها!

وأذكر أن أمي سألتني ذات مساء هل تعرف قصة الحمار ابن الحمار، واستغربت كثيرا من عدم معرفتي لهذه القصة وأنا الخبير بالقصص المحب للحكايات والقارئ النهم للروايات. قالت لي بصوتها المليء بالزيتون والتين والممرات الترابية المعطرة بصباحات قروية مغسلة بالطوابين فاسمعها مني:

في الزمن البعيد في الزمن الذي كانت الأندلس موحدة ويحكمها رجل من عائلتنا أبو المغاوير، مات لفلاح فحل على حدود الدولة الأسد وكان الأسد قد فقد أشباله، وجيء بالحمار مربوطا ومكبلا

الحمار:هل تحسبوني مذنبا؟

الضحاك

...

- اضحك تعش تنتعش، اضحك يا رحمك الله! حتى لو رأيت الشمس تذوب بين أناملك، والنار تسكن بين جوارحك، والوجع يلبس عباءة روحك،اضحك ثم اضحك"

كانت هذه وصية أحد المحششين لي عندما كنت أسكب النصائح في أذنيَّ وعقلي، وأقلبها بين دفتي قلبي،..وقد قبلت النصيحة فضحكت وبقيت أضحك، وأحب كلمة اضحك، وكم غنيتها طفلا صغيرا مع أحد المطربين، ورددتها معه، وهو يقول اضحك اضحك لازم نضحك يالله نضحك "...

صرت أضحك كثيرا، ورافقني الضحك حتى شيخوختي..

كنت أضحك حين أقف أمام المرآة، وعند تناولي الطعام، وفي كل مرة أسمع فيها صوت المذيع يقول تلك جولة والمعركة لم تنته كنت أضحك وأمطر الساحة بالضحك الأخضر والأصفر والأحمر

وأذكر أنني دخلت ضاحكا عند أحد المحققين فجن جنونه، وبدأ بشتمي

وأذكر مرة وأنا طالب جامعي أن الضحك أمسكني من ذاكرتي في الباص بعد إحدى المظاهرات، فتذكرت أنني أضحك بلا سبب، وبلا

توقف فازددت ضحكا، وارتفعت ضحكتي، وتمطت على وحدتي، فسمعتها الفتاة التي كانت تجلس إلى جانبي، وكانت قد أمعنت في رسم كل شيء فيها، فتغير لونها واهتز الرعب في أجزاء جسدها فاقشعر، وبدات تنكمش على نفسها في المقعد، وتشققت ألوان وجهها فصورة وردة كالدهان، وهي بألوانها تذوي وتذوب وتسح مع عرقها النازف، وانا أزداد ضحكا

وتدخل أهل النخوة وأزاحوها عن الكرسي، حموها من ضحكي، وظلت أعين الركاب تراقبني، وأنا أضحك، ثم وأنا أنظر إليهم وأضحك حتى نزلت هههههههه

كانت ضحكة ملأت المكان بالعيون والشفاه والأصابع والهمس والوشوشات، وملأتني ثقة بأنني أنا أنا، وبأن الذين يراقبونني يتمنون أن يضحكوا أكثر مني مع أنني ما زلت أبحث عن تلك الضحكة في صباحاتي ومساءاتي منذ ذلك اليوم.....

صخب

قلت لهم: لعل عمري كان كافياً لأحمل رائحة الحقول الواسعة، والأشجار الخضراء، وارتخاء أجنحة الليالي على السمار، وأصوات أسراب الشنار وهي تناجي الشمس وتستقبلها، كان كافيا لأحفظ أغنيات العصافير، ورقصات سنابل القمح وهي تستمع لأغاني الحصادين وتلتصق بي مع كل تلك الصور العميقة، وتتشبث بعيني، وتخزني في كل حلم، وفي كل إغفاءة، ومع كل رقصة غصن زيتون...

كان الصف الأول في قريتي بداية هروبي من كل قيد؛ فأنا لا أذكر أنني جلست على مقاعد الدراسة، بل لا أذكر أنني رأيت حرفا مكتوبا على السبورة، فقد كنت أنتظر أمي حتى يأكلها الممر الترابي لأهرب إلى الحقول، فأنا لم أترك دالية في إلا وطرقت بابها، ولا شجرة لوز إلا ولاعبتها وعلمتها قسمة القرود، ولا صبارة إلا وسمعت شكواها وأخذت عنها بعض شوكها...

أما في الليل فكنت أكتفي بسماع شكوى أهل قريتي من هذا الذي لا يبقي ولا يذر، ويقضى على كل ثمر، كنت أحبس انفاسي خوف أن تشرئب نظرة من هنا أو من هناك فتعرف القلق في عيني، وتكتشف الجاني...

ظللت أسطو، وظل أهل القرية يشكون زمنا طويلا، حتى وقعت في شر أعمالي، فقد هربت كعادتي من الصف، متسلحا بعزم الهاربين وعزيمة الجائعين، وكنت خطتي واضحة، وأهدافي متلألئة، فقد قضيت الليل وأنا أرسم لكيف، ومتى، وما... تسلقت السور الطيني، ودخلت بستان الدحدوح، وهورلت بسرعة إلى صحون العسل وأكوابه الذهبية، فتحتُ، فصرختُ، فهربتُ ولزمت الفراش أياما معدودات مع رفيقي، الألم والوجع، تسلمني الآه للآه... ومنذ ذلك اليوم تناوب أهل القرية على مراقبتي...

مواسم الحارات

وقلت: موسم "القلول" أو "البنانير"الذي كان يزور حارتي كل عام وقت الامتحانات المدرسية لم يأت يوما قبل موسم الطائرات الورقية، ولا أذكر أنه قد رافق موسم سيارات الأسلاك، أو جاور موسم عربايات السكوتر،ولا امتثل لموسم صناعة أحذية السيرك التنكية العالية،ولا أذكر أن موسم صناعة النقيفات قد جاور موسم صناعة المقليعات،ولكني أ ذكر تلك الآكوام العظيمة من أعواد الملوخية التي كنا نجمعها في موسم قطف الملوخية ونملأ بها حفرة عميقة تجمل لنا القفز فيها،كانت ترافق موسم جمع القعفور حين كنا نخرج إلى الجبال في جماعات تنادي وين خويتك يا قعفوره ويرد أحدهم قائلا:"هريها ".أما موسم صناعة التلفون من علب اللبن فما كان يستمر طويلا إذ تسرع أقدامنا إلى القفز والنط تسرع إلى ما تحب وما تدربت عليه وتعودت؛ لنلعب السبعة حجار،ولعبة الجور،ولعبة عالي واطي، ولعبة الطماية، ولعبة الحجلة، ولعبة حدرة بدرة، ولعبة شبره أمرة شمس نجوم ورده،ولعبة الطابات المصنوعة من القماش. كان لكل لعبة من هذه الألعاب موسمها الذي يطول أو يقصر حسب رغبة جمعية لا زلت أجهل كنهها، لكنني ما زلت أذكرها وأتحسس أثرها في روحي..

الطُّرفان

كتبت في دفتري: طبختان تذكران وتحمدان من طبخات أيام زمان المفتول والطُّرفان، فهما فخر طبخات أمي ومبعث تفوقها، فهما مما لا تستطيعه ناعمة الأنامل طرية البنان، ابنة الواو المغناجة المتمايلة الأغصان، كانت ساحة الحوش هي العنوان ووابور الكاز المؤنس الرنان،"تشعوط" عليه أمي الرأس بإتقان، وتنظف "الكرشة"برقة وحنان، كم أحن إلى ذلك الزمان، لا يتعبها إن مضت ساعة... ساعتان،طبخة العز يا أخي حقها أن تصان...كلما جاء وقتها ركب الجيرانَ جان، نجلس العصر حولها، موعد الأكل حان، يقسم المخ بيننا رب بيتنا الإنسان، يطعم العين من يرى أنه غير "قرفان"والشخاتير تُشتهى مثل حور الجنان، لحمة الرأس مطلب، والهوى بعض ذاك اللسان...لا تلوموا هزتي كلما قيل "طُرفان"

بين نارين

ثم قال لنفسه الأمَّارة بالغرق:

"أنت بين (السكوير) و(المِلك بار)، على الطريق الواصل بين الحلم والحقيقة، بين الواقع والخيال، بين الطبيعي والمزيف"

"تجرَّد من اليبوسة فيك، فاليابس في الجامعة ينكسر بسهولة مع إطلالة وجه من لوز ودفء وخضرة."

"أنت الآن أمام البوابة الرئيسة للجامعة الأردنية، أرخِ جسمك قليلا، وتهيأ للدخول، فمن بين الغياب أتيت أنت؛ فلا تدع هذي القباب البيضاء الضخمة تسلبك ذاك السيف الذي يتبختر في صدرك، ولا هذا الصبر الذي يناديك من الأعماق ويحثك على المسير"

" لا تثقل روحك بما تبقى من قسط الجامعة الأول، ذلك المبلغ الضخم الذي قلت للجميع إنه غول تأكل رئتيك وتربط قدميك... لا تتعب روحك بما يرتعش على جسدك من ملابس بالية، ادفع قدميك للأمام، فأنت أمام بوابة الحلم المرتفع والبياض الطيب للحياة"

تجرد من أنفاس الخجل قليلا، وافتح عينيك على مصراعيهما، وأطلق لهما العنان ليسرحا في هذا الجو الضبابي من الأجساد والبسمات والضحكات "

"أغرق لونك الدموي في جرأة المكان، فأنت أمام ال(ملك البار) على بعد خطوة أو خطوتين من ال(سكوير) على بلاطات تميد بالحلم والدهشة.."

تحاصر عقل محمد الدبابير الملونة المطرزة بالصوت والصورة، وبالقيل والقال، والهمس واللمس، والابتسامات المطرية، والضحكات الملونة المزركشة، والحركات اللينة الناعمة..

"اجلس هنا، أو هنا، أو هناك، لا تثريب عليك اليوم، فأنت تمشي في ظلال الأشجار الباسقة المائلة المميلة، العالقة في نور عينيك في واحات السلم بين نظرتك الطامحة للأعالي وانتفاضة الجسد وهمساته الوحشية..."

السكوير يلتحم بالأنا وبالغياب ليشكلا قوس قزح من أنفاس حارة ونبض بطعم الشهوة، ليسكب محمد ما شاء منهما في ممرات دمه؛ فالخطوة التي تخطوها عيناه اليوم تشكل مستقبل نبضه الجديد

جلست على أنفاسك في حومة السكوير، اتكأت على الأجساد المرتبكة المستفزة، أنعمت النظر، وطوفت بعيدا... كم ضحكت عيناك من الأشكال المتعددة للحم البشري الأنثوي والذكوري! كانوا بطعم اللوز والحناء والطين والتراب والعطر والذهب والخميرة والنار

والهـواء، ولـم تكـن وحـدك هنـاك إذ كـان السـكوير سـاحة للعيـون الراقصة المندهشة التي تبحث عن مستقر لها

حسـبك اليـوم، أفـرغ عينيـك في هـذه الكتـب، وفي هـذه السـاحات المطعمة بالخيال والمسرح، واحتفل بأنك لا تحمل حقيبتك المدرسية، ولا تثقـل يـديك الكتـب، ولا يراقبـك عريـف الصـف، افـتح قلبـك للغموض الجديد...

"أنت أيها الجالس على مدرج السكوير تراقب الداخلين والخارجين من الملك بـار وهـم يحملـون مـا لـذ وطـاب وعـلا فـوق نقـش الـدينار الـذي يتململ في جيبك، لا تجعل الأرض تبتلعك من جديد!!

أعرف انك ما زلت تشعر بالوحدة والغربة، وأن فيك ارتعاشة ضخمة تنادي يدا لتمسكها، وتخفي عن وجهك خشونة الفقر والشقاء...

"أعـرف أنـك تعبـت مـن تسـارع اللهفـة إلى قلبـك، ومـن طـول انتظـارك للقـادم البعيـد على جنـاح الرحمـة، وأنـك لـذلك تسـرع الخطـو إلى (الكفتيريـا)لـتجلس في ركـن قصـي لتراقـب الشـارع وهـو يبتلـع المـارة والضحكات والابتسامات، ويعلق الصمت على الأشجار..

أعـرف أنـك تحـدث نفسـك الآن حـاملا زجاجـة العصـير، وتتكئ عينـاك على زاويـة مهجـورة مـن رهـف وردة تغني للفـرح في جلسـة مـن أمـل وحب، أو تبحث بين أغصان الزيتون عن قدسيتها...

أعرف أنك الآن تختلق الأعذار لبضع قهقهات فالتة من عيني صبية، وحشد من النظرات المثخنة بالشوق والغيرة والاشتهاء، وأنك ترسم قوس قزح لعاشقين أسبلا أعينهما على حروف ملونة بالفرح..

أعرف أنك تسأل عمن أعطى الحارس هذا القبس من النقد والنار والقسوة "

يدق الدكتور على المقعد ويهمس، يا محمد، اقرأ يا محمد!!

تتأخر ثانية أو ثانيتين

- يا محمد، لا تسرح ثانية يا محمد!!! "

يقرأ محمد:

:"كان لقاؤهما الأول مليئا بالصمت والعيون والابتسامات المرتبكة..فكيف نما الشوك في راحتيهما واحتلت الأسئلة المزعجة أعينهما...؟ هذا ما قاله العاذل للسيدة الواقفة على أبواب الريح ترقب أنامل الكلمات كي تطرق بابها.

قطع

- شو صار، قطعتوا المهر؟

- يقطع شرك يا أم شديد شو هالسؤال، معقول من الطلبة يقطعوا المهر؟!

- قطيعة تقطع اليهود،وليش ما يقطعوه!؟

قال محمد: سؤال أم شديد هذا استفز سؤالا آخر عن العلاقة بين الجذر قطع وما نعيشه من انكسارت وتشوهات وانتكاسات؛ فهو قد لفت نظري على ولعنا بالجذر ق ط ع ويفكرة القطع خيالا وقولا وفعلا؛ إذ حظي هذا الجذر في الزمن الحديث والمعاصر مع مشتقاته باهتمام عظيم لم يحظ به منذ كانت اللغة، فنحن نكاد ندخله في أمور حياتنا كلها فنحن نقطع ونقطع اليمين كما نقطع الثمر، ونقطع فتوى في ما نقطع لنقتنع.

وابتداء من قطع الصرة حتى قطع خبره وجابت آخرته نحن نمضي في القطع،فنحن نقطع تذكرة ونقطع الوعد ونقطع الفتوى ونقطع الشارع،ونقطع الاتصال،ونقطع ونقطع...

ونحن نكاد نقطع كل ما فوق الأرض وما تحتها، فإذا هددنا أحدهم هددناه بالقطع" "لاقطع راسو" و"لاقطع ايدو "ولاقطع رجله"

ونحن نربط بين القطع وكثير من العواطف وردات الفعل والسلوك؛ فالخوف يقطع النسل، والوجه النكد يقطع الرزق، وقد يقطع الخميرة عن العجينة، واللبن الجيد يقطع قطعا، والشحاد يقطع يده ليشحد عليها. ونحن إذا غضبنا نلجأ للجذر ق ط ع، فالقطع والمقاطعة والاقتطاع مفردات لا تفارق ساحة الأحاديث اليومية عندنا وانتقلت عدوى هذا الجذر لفظيا وعمليا إلى الحكومة ومؤسساتها وما يستظل بها من مؤسسات. ولعل البنوك وشركات الهاتف من أكثر المولعين بهذا الجذر بعد شركتي المياه والكهرباء اللتين تضعان الفعل قطع بندا لازما على ظهر كل فاتورة

لقد رأت الحكومة أن لفظتي قطع واقتطاع مناسبتين للتعبير عن قنص جزء من راتب الموظف لسبب تحدده هي، فهي توشح كشف الراتب بمجموعة من الاقتطاعات

وتتداول الألسنة في الشوارع ما يشير إلى لؤم المقتطع، فقطع عنه المي والكهربا عبارة تشير الى قمة اللؤم، وقطع نفسه عبارة تعني التعب والخوف، وقطع خلفته عبارة تعني الرعب والصدمة....

وحين تقرأ على سور مدرسة البنات في قريتي: فلان واقطع؛ فأنت أمام ديك حبش قد تباهى بنفش ريشه

ولا يذهب أحدكم بعيدا في التحليل فيظن أن للجذر قطع علاقة من بعيد أو قريب بالفعل قذع او بالفعل خمع أو بالفعل قمع، فهذا من باب الجناس لا أكثر ولا أقل، وإلى هنا واقطع...

ما علينا من كل هذا الحكي عن قطع فإن مشكلتي كانت مع" طقع" فأنا ما زلت أذكر أول مرة سمعت فيها كلمة طقعْ، وكانت من زميلة لي في الجامعة، ولعل الدهشة التي أصابتني من سماع هذه اللفظة لا تقل عن الدهشة التي أصابتني من أن الآذان لم تستنفر منها، ولم تستفز، وكأنها سمعت كلمة مرحبا.

– سعاد، ما قصدت بطقع؟

نظرت إلي بعينين شامختين راقصتين ضاحكتين، ثم قالت برِقة الشكولا: طئع يا محمد تعني شي فانتستك، يعني كتير نايس وأورجنال! عجيب، ما بتعرفها، كل الجامعة بتؤل طئع!

– يا الله، طقع يعني نايس وفانتاستك، والله إن هذا لأمر عجاب!

– إنت طكع يا محمد!

ولما تشبعت أذناي من كلمة طقع عدت إلى قريتي طاقوعيا، وأنا أردد طقع طقع طقع طول الطريق لكي لا أنسى هذه الكلمة الطازجة.

ولم تشعرني بالقلق أو بالغرابة نظرات ابنة قريتي المتنحنحة المتزحزحة وتطليعاتها المشمئزة من طقعاتي المستمرة، ولا نظرات

السائق ابن أبي سعد إلي وهي ترمقني بغضب وكأنها تهددني بأبي، كان فكري شاردا باستعمالات طقع، والمجالات التي يمكن أن تستخدم فيها، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي إن كان أهل قريتي سيتقبلونها بسلام، أم سيشنون عليها حربا كما شنوا حروبهم الشعواء على كل جديد، " لا تستسلم يا محمد، اعرضها عليهم، أطلقها في عيونهم، أنثرها في حقولهم، بعثرها في وجوههم، فهي للمعلمين أجمل وأسهل وأقصر من ممتاز وجيد ومقبول، فطقع وحدها كافية للتعبير عن التقديرات كلها، فإذا سألوا المعلم: كيف الولد وأجاب بطقع فإنه يضع السائل أمام خيرات كثيرة موحية، ولن يعاني مستعملها إن تعارضت اللفظة مع مطاقعة الحمير ومطاقعة البطون؛ فهي تحمل شخصيتها في حروفها وتستمد فراداتها من تلك الحروف الطاء والقاف والعين، طقع ما أجمل قرقعتها، ووقعها على الأذن! "

"هل سيقبلها شيخ المسجد، ولم لا يتقبلها، يكفي أن يقول للمصلين طقع ليعطي لخطبه نكهة عصرية بطعم الطقع، لا شك عندي أنها ستكون حديث القرية ومركز اهتمامها، سيستخدمها الطيان أبو خالد، والحداد أبو محمود، وسمره بائعة التين، وأم رشرش بائعة المفتول، كلهم سيقولون طقع أو طكع، ولا بأس إن رققتها نساء

قريتي فقلن تئع لأنها تصلح لكل اللهجات... ودخلت البيت فرحا مسرورا متباهيا بكلمة طقع، سلمت على أمي وقبلت يديها، ثم أسرعت إلى المائدة حيث تلوح لي صحون الزهرة والبيض والبطاطا والعدس، وصرت أبتلع الطعام ابتلاعا.

رأتني أمي أقبل على الطعام بشراهة وحب وتلذذ، فشعرت بالزهو، فقالت تسألني سؤالا ضمنيا، وهي العارفة برأيي: شو، أعجبك الأكل؟

- والله يا إيمي طقكع!
- طكع، يا سويد الوجه، ولك يا كشة، يا مجعد، يا ابو الصناين، يطكعك سعدان على ثمك؟!
- ياإيمي، طقع يعني: فانتاستك؟
- كياس بلاستك! يا بو شخة، ولك روح عن وجهي، طول عمرك ما بطلع من ثمك كلمة حلوة!بكرة بنشوف مرتك شو بدها تطبخلك، يا خوفي تخلي حياتك كلها طكع!وكياس بلاستك

وما كادت صواريخ أمي اللفظية وقصفها المدمر يتوقفان حتى أطل أبي غاضبا، متغضن الوجه، تبرق عيناه بالغضب: تعال وله، تعال،

ولـك نسـيت إنـك طالـب جـامعي، وصـرت زلمـة، وكلمتـك محسـوبة عليك!

وأنا أختبئ خلف أمي: شو في يابا، والله ما عملت إشي!؟

- بتكول لبنت محمد الإحمد "طكع" ولك هاي بنت شيوخ، ولك انت الطكع يلعن سنانو أبوك ِ؟ وطقعني كفاً خلاني ألف لفاً

الغشيم

وقلت في نص لن يكتمل:

لا تثريب عليك اليوم إن لم تعرف المعنى الحقيقي للفعل غشم، ولن ألومك إن ذهبت مع تفكيرك الفلافلي صوب الغاشم والغشم والغشوم، لأنَّ الجذر (غ ش م) واشتقاقاته تتداخل وتتشابك بصورة مريبة توحي بالمؤامرة والتآمرّ

فالغشيم في قريتي في تفسير شيوخها وعجائزها مختلف عنه في تفسير شبابها،ومختلف عن تفسير معلمي المعجمي الذي يقول إن الغشيم هو الجاهل في الأمور،الذي يقوم بالأعمال من غير تدبُّر ولا رويّة ولا علم، فهو كحاطب ليل

والغشيم في قريتي هو حديث الربابة وطبلة الأمثال، الذي تستدير حوله العيون، وتُشنَّف الآذانّ لسيرته وأخباره

وأنا كنت ذلك الغشيم في سنوات حبلى بالهم والغم؛ فأنا ذلك الهجين الغشيم الذي أوقعه قلبه في ساحات الضحكة المستديرة، وأوقعه عطشه للحياة في سلات تين مرفوعة على أنفاس النمل والنحل والجراد، وأنا ذلك الغشيم الذي قزع كوز الصبر بأصابع من شغف وقلق، ودثره بشفيف أنامله، وأكله بشوكه وألمه ووجعه.

وأنا ذلك الغشيم الذي لم يعرف دربه بين مقاثي الفقوس، وتاه بين أقدام الراكضين خلف لقمة العيش، نعم كنت أنا ذلك الغشيم الذي ظن أن المنحلة تؤتى بعيون وعضلات، وأن عش الدبابير مليء بالبيض والحياة...

في تلك الغفوة الضبابية من طفولتي البضة النضرة الشفيفة النقية التي اكتشفتُ فيها أنني أنا الغشيم الذي تتحدث عنه القرية كلها

- مش هيك الله يكسر إيديك!

- مَهلِك عالصبي، لسَّاتو غشيم بيعرفش!

- هاظا غشيم، هاظا بيتغاشم، حيّة من تحت تبن، هلمسلوع المعصعص، أبو عصاقيل مثل عصاقيل أبو سعد. ولك روح، روح من هين لطكعك بهلهاون عراسك، يحرك أساسك مَعْنَد راسك!

ركضتُ إلى الباب، شتمت وصرخت ورميتها بالحجارة...

- يما، يا حبيبي، بصريش تكول لجارتنا يا كشة، وترميها بلحجار!

- بس هي ضربتني، وصرخت بوجهي، وكالت لي يا معصعص،يا اركش،يا دهويتش!

- يا يما، البيض بينحط في السلة وشويش مش رمي، يعني معها حك تعصب منك!

قالت أم سعد: غشيم ما تعتبوش عليه، أول مرة بيشوف حمار قبرصي!

ورافقني لقب الغشيم في أمور حياتي كلها:في أكلي وشربي وأمور حياتي

- قلتلِّك مريت من جنبو وتبسمت بوجهو، بقلك تبسمت بوجهو ما ظل غير اني اقولو بحبك! مش معقول قديش غشيم ومغمض!!

- محمد،تعال لهون!

- نعم يا شيخي

لما الرجل يبلغ الحلم يُسأل عن عمله وفعله وقوله وصفاته

- طيب يا شيخي مين بيسألنا وليش؟!

- محمد، انت لازم تعرف إنو الإنسان غير مخلّد، يعني كلنا رح نموت!

- كش بره وبعيد، فال الله ولا فالك! ليش بتفاول عليّ يا شيخي، ما لقيت غير سيرة الموت تحكي معي فيها!

- يا بني يا محمد لما يبلغ المسلم الحلم...

- شو هي الأحلام اللي بنتحاسب عليها يا شيخنا، والله أنا بحلم كثير أحلام ومن زمان والله يا شيخي

- يا بني بلغت الحلم يعني صرت زلمه، أقلك روح روِّح قرَّبت أمك تخلِّص طبيخ!

وامتزج الغشيم يوما بسيل بشري مثقل بالهتافات والصرخات فاض من كلية الآداب، زاحم الأجساد والأصوات ليرى صورة قائد الركب والقافلة. الغشيم سمعهم يهتفون فهتف يشتمون فشتم، رفعوا أيديهم فرفع والغشيم دفعته الإيدي للمقدمة، ناولته اليافطة، ورفعها باعتزاز، ثم بخوف ثم بقلق، فقرر أن يقرأها وقرأها

كلا كلا أمريكا

فرح الغشيم لأن الشتائم التي ردَّدها من وراء القادة الميدانيين للغضب الطالبي كانت لأشخاص من غير قريته،ولرؤساء غير عرب مع تشابه غريب للأسماء.

ولكن الغشيم الذي في داخلي ويظهر بين عينيَّ وعلى لساني، وفي نبض قلبي، وفي خربشات يدي، كان دائما يقول لي انظر لهؤلاء كلهم يركضون خلفك لا تدعهم يلحقوا بك، لا تدعهم يسرقوا منك توهجك،لا ولا ولا

- وَلَك أكم مرة قلتلك فنجان القهوة بايدك اليمين والبكرج بإيدك الشمال

- والله يابا انسيت!

- ولك سودت وجهنا، انقلع من وجهي!

المحتويات

فراشة الفرح 7

على العتبات..... 23

المتمرد..... 26

الغريق..... 34

المجاكر 40

المترفق 50

رفرفات 55

المتهرب 57

المتكوِّر 62

المتسلق 66

المنقذ 69

المدخن..... 71

المتنمِّر..... 75

المتفلسف..... 79

المجلة..... 86

البشمة 87

جلسات بالأبيض والأسود 88

خ رط 90

المتسحسل 95

المتعربش 97

الصياد 99

المتدحرج 103

الصاروخ 108

المتشائل 110

المغنِّي 111

اقصد 113

"حط أمك في الطنجرة" 115

همسات عتبات 116

همسات عتبات 117

طقوس 118

المشعوذ 119

المتشعبط 121

سوالف طرمة 124

همسات فوق العتبات 125

همسات فوق العتبات 126

همسات عتبات 127

المتقاعد 129

الباصم 132

المتسائل 135

المستذنب 137

المتفرج 139

همسة عتبة 143

الحراكي 145

زرقاء 147

المستحمر 158

الضحاك 159

صخب 161

مواسم الحارات 163

الطُّرفان 164

بين نارين 165

ق ط ع 169

الغشيم 175